

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أجواء الحوار في الأندلس رسالة الباجي أنموذجاً

إعداد

الدكتور أحمد معاذ علوان حقي
الأستاذ المشارك/ جامعة الشارقة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين... أما بعد :

فبادئ ذي بدء يجب أن نقرر حقيقةً بديهيةً في الفكر الإسلامي مفادها أن الحقوق التي تعطى للإنسان ليست مئة من أحد، وإنما هي منحة ربانية منحها لعباده، ومن ثم فله وحده المئة والفضل، هذا بعكس المقولة الغربية القائلة إن الحقوق لا تعطى وإنما تؤخذ، فالإنسان الغربي لم يحصل على حقوقه مثل: حق الانتقال، حق العمل، وحق التنقل، وحق التعليم، والحقوق السياسية، إلا خلال فترات من الصراع المرير حتى استوتت على صورتها الحالية، ومن هنا يتبين لنا أن ما جعله الديمقراطية حقاً ينتزع انتزاعاً جعله الإسلام عطاءً وهبةً من رب العالمين للبشر، ليس لأحد أن يَمُنَّ بها على أحد، والواجب على الحكام إعطاء الناس حقوقهم، وهذا ما لخصه عمر الفاروق رضي الله عنه في قولته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"^١.

ومن هنا حصل الإنسان في ظل الإسلام على حقوقه، ولم ير فيها مئة من أحد، ولم تعط هذه الحقوق لفئة دون فئة، ولا لقومية دون أخرى، وكانت أنباء عدل المسلمين ورحمتهم تسبقهم في الأقطار، حتى وجدنا أن الشعوب المظلومة تستجد بالمسلمين لإنقاذهم من بؤسهم وعبوديتهم، وكانت من بين تلك الشعوب التي استجدت بالمسلمين شعب الأندلس، ولم يكن الفتح الإسلامي للأندلس توسعاً عربياً، وإنما ثورة تحرير من الظلم، والاستعباد، والجهل، وظلمات العصور الوسطى، ولا شك أن التجربة الأندلسية ثرة وغنية، ولها أثر عميق في الوعي التاريخي في فترة مفصلية من التاريخ الإنساني، فقد ساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية، ومكنت الغرب من الاستفادة منها وبناء نهضته الحديثة، ومع تجاهل الغرب لهذه الحقيقة الناصعة يبقى بعض المنصفين من أبناء الغرب من أنطقه الله بالحق، وأرجع الفضل إلى أهله، يقول الأديب الفرنسي (أناطول فرانس) بحسرة: "ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي، إن انتصاره عليه أضر المدينة عدة قرون إلى الوراء"^٢، من أجل ذلك أحببت أن أنكون مشاركتي في مؤتمر الحوار عن أجواء الحوار في الفردوس المفقود الأندلس، رسالة الباجي أنموذجاً.

والله أسأل السداد الإخلاص في القول والعمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه

الدكتور أحمد معاذ علوان حقي

^١ - (كنز العمال): ح (٣٦٠١٠)، ١٢ / ٢٥٨٥.

^٢ - (أجنحة المكر الثلاثة) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ص / ١٩٠.

التمهيد

الأسس العقدية لتسامح المسلمين مع غيرهم:

يقول غوستاف لوبون: "رأينا من أي القرآن التي ذكرناها أنفاً أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب ... قال روبرتسن في كتابه (تاريخ شارلكن): "إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرأ لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية"^١، يقول الملك الفارس (كيروس): "إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين"^٢، وهو رد على من يتهم المسلمين بالتعصب والوحشية، وأن هذه الدعاوي مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف الأدلة القاطعة من تسامح المسلمين، وإنسانياتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة، ويؤكد هذه الحقيقة بطريك بيت المقدس في القرن التاسع في رسالة بعثها إلى أخيه بطريك القسطنطينية: "إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"^٣.

حفل الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في مختلف عصورها، وشتى أقطارها بأروع مظاهر التسامح الذي لا يزال الناس يتطلعون إليه إلى اليوم في معظم بقاع الأرض فلا يجدونها، يقول ول ديورانت: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم"^٤، وما كان هذا ليحقق لولا استناده إلى أسس عقائدية وفكرية.

إذا فالتسامح مع الآخر في الدولة الإسلامية لم يكن نابعاً من مصلحة آنية، أو من منطلق ضعف، وإنما كان باعته دينياً، فقد ربي الإسلام المسلمين على التسامح وتقبل الآخر، ومن المبادئ التي غرسها هذا الدين الحنيف في نفوس المسلمين حتى أصبحوا مثلاً يحتذى به:

١- **الإنسان مخلوق مكرم:** إن الله ﷻ قد كرم الإنسان أيّاً كان جنسه، أو لونه، أو دينه، قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذه الكرامة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية، وقد كان من هديه ﷻ احترام النفس الإنسانية، عن جابر بن عبد الله ﷺ أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفاً، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: أليست نفساً! إذا فلكل نفس في الإسلام حرمة، فما أروع الموقف، وما أروع التعليل!

٢- **الإنسان مخلوق وهب العقل والحرية:** وجوه تكريم الإنسان كثيرة، ومن ذلك أن الله وهبه

نعمة العقل، والمعرفة للتمييز بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿الرَّجُلُ لَلَّهِ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفِيرَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ

^١ - (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) يوسف القرضاوي: ص/ ٢١. نقلاً عن (حاضر العرب) ترجمة عادل: ص/ ١٢٨.

^٢ - (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٥٧.

^٣ - (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٦٤.

^٤ - (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) يوسف القرضاوي: ص/ ٥٢، نقلاً عن (قصة الحضارة): ١٣ : ١٣١.

^٥ - رواد البخاري في صحيحه: باب من قام لجنازة اليهود، ح (١٢٨٩)، ومسلم باب القيام للجنازة، ح (٢١٧٧).

الْمَجْدِينَ ﴿ [البلد: ٨-١٠]، وأعطى كامل الحرية للاختيار قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

٣- الاختلاف سنة من سنن الله الكونية: جرت سنة الله في خلقه أن خلقهم متفاوتين في العقول، والقدرات، والإدراك، والأهواء، والنوازع، كما خلقهم مختلفين في الأشكال والألوان، وهذه الاختلافات أدت إلى الاختلافات الفكرية والعقائدية، فالاختلاف إذاً سنة من سنن الله الكونية، وهذا ما أشار إليه ربنا ﷺ في محكم تنزيله حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وسيستمر هذا الاختلاف إلى ما شاء الله لحكمة بالغة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ

النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ — ١١٩]، أي للاختلاف خلقهم، وليس المراد هنا الاختلاف في الصور المدركة بالبصر، وإنما الاختلاف الذي بعث الله من أجله النبيين ليحكموا بين المختلفين في الآراء، والنحل، والأديان، والمعتقدات

٤- عدم إكراه أحد في الدخول في الإسلام: لما كان الاختلاف من سنن الكونية فليس للمسلم

أن يكره أحداً في الدخول في هذا الدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لأن الإكراه قهر للإنسان وإذلال له، وتحطيم لشخصيته، وحرية التي كفلها له ربه، ومن جهة أخرى يورث الأحقاد، والضغائن، ولما كان الإسلام دين العقل، والمنطق، والفضيلة السوية، فلا يُجيز الإكراه، ومن هنا ف"ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ جَدَلْتُمْ وَقُلُّوا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ

بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٨ - ٦٩]، وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره، والإسقاط إليه، وإقراره على ما يراه من دين، واعتقاد^١.

٥- إقامة العدل ضرورة شرعية: أمر المسلم بالعدل في جميع أموره: مع نفسه، وأخوانه، ومع

الآخر، حتى مع خصومه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

٥- الدعوة بالحسنى: المسلم مطالب بدعوة الناس إلى الخير وبيان الحق، والأخذ بيدهم،

والرفق بهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّمُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى

^١ - (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) يوسف القرظاوي: ص/ ٤٩ - ٥٠ .

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿[الأعراف: ١٦٤]﴾، فهي عملية إبراء الذمة أمام الله تعالى، وليس هناك طريق سوى الدعوة إلى هذا الدين بالقول الحسن، والحكمة والموعظة الحسنة، والخلق السامي، والمعاملة الطيبة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِآتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومن هنا فإن الحوار هو الطريق الأمثل الذي يتجسد فيه هذا الأسلوب. وهذه الأسس كلها خلق الأجواء المناسبة للحوار البناء مع الآخر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

الفصل الأول أجواء الحوار في الأندلس

المبحث الأول - الأندلس قبل الفتح الإسلامي:

قبل الفتح الإسلامي للأندلس كانت محكومة من قبل القوط، ولم يستقر سلطانهم فيها إلا بعد أن تكتكوا، وكانت الأندلس بلداً كاثولوكياً خالصاً متعصباً لا يسمح فيه لمذهب مسيحي آخر، ولا لصوت يعارض قواعد هذه العقيدة، ومن جهة أخرى وضع القوط حاجزاً بينهم وبينه أهل الأندلس، فلم يتزاجوا بالسكان حفاظاً على سلامة عنصرهم، وصيانة لهيبة سلطانهم^١. وكانت جرائم اليهود حيال المسيح ماثلة أمام الكنيسة المسيحية فحرصت على تتبع اليهود طلباً للثأر، وقد كان هذا التتبع هادئاً غير ملحوظ في الشرق، أما في الغرب فقد ثابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم، فهربوا إلى النواحي التي كانت سلطان الكنيسة فيها ضعيفاً، مثل أسبانيا، وشمال إفريقيا، وبلاد الشرق، وكثر اليهود في أسبانيا حتى لنجد مُدناً كاملة يعمرها اليهود، ومنذ العصر الذي بدأ فيه التحالف بين الكنيسة والدولة، تقلصت حقوق اليهود الشخصية أولاً، ثم ما لبث أن سلبت حقوقهم، وقد عانى اليهود في الأندلس تحت حكم القوط - في ظل هذا التعصب - الأمرين، وبدأت المجامع الطليطلية تضيق الخناق عليهم، فأصدر قراراً بضرورة تعميم أولادهم الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية، ثم أصدر (ششوبوتو) سنة ٦١٣م، قراراً يخير اليهود بين التنصير أو الهجرة من البلاد، فهاجر قسم وتظاهر قسم باعتناق النصرانية، وصدر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية، واستمر تطبيقها في عهد (إيربيخيو)، وفي عهد (إخيكيا) حرم عليهم - عام ٦٩٣م - التعامل مع مسيحيي المملكة^٢.

يصف إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي أحوال أهل الأندلس من استئثار مظاهر التوحش، واستفحال الجهالة، "أهل أسبانيا كانوا أهل غدر ودناءة أخلاق، وأنهم لا يتنظفون، ولا يغتسلون"^٣، وهذا الوصف ينطبق على غالب الحياة الأوربية قاطبة في تلك الفترة.

المبحث الثاني - فتح الأندلس:

إنه لمن الإجحاف أن نقول إن الفتح الإسلامي كان لإنشاء إمبراطورية عربية مترامية الأطراف، لأن الواقع يكذب هذه المقولة الظالمة، إذ الواقع يشير بكل دلالاته بأنه حركة تحرير واستيقاظ للشعوب ضد ظلم الأباطرة، وجور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد ضاقت الدنيا بالمظلومين بعدما رحبت، ونتيجة هذه الظلمات قتلت في الإنسان الرغبة في الحياة، فأعاد الإسلام للإنسانية هذه الرغبة، وأقيظتها من غفلتها، فهو حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً، فلا يكاد يقبل الإسلام على بلد حتى يستيقظ أهله فيهبوا ليحملوا رايته، ويصبحوا دعائه، وكانت أخبارهم تسبق سنابك خيولهم، فقد طافت بذكر مآثرهم الركبان، فكانوا الأمل الوحيد للمستضعفين، والرجاء في إنقاذهم من محتلتهم.

كان أهل الأندلس تحت حكم القوط يلاقون الأمرين، ويرى (إفانتي) أن الأندلسيين نتيجة ظروفهم الصعبة قاموا بدعوة العرب، وقد نهضت الأندلس لمساعدتهم، وفي أقل من سنة أثبت (٣٤٠٠٠) رجل أقدامهم في الجزيرة الأيبيرية^٤، ولذلك لم تكن المعركة بين المسلمين وبين أهل الأندلس، بل بينهم وبين القوط، ولهذا كانت قصيرة المدى وساعد على تقصير مداها اختلاف القوط فيما بينهم.

١ - راجع (فجر الأندلس) حسين مؤنس: ص/ ٢١ - ٢٢، ٤٥٤.

٢ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٤٢ - ٥٤٤، و (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨٢.

٣ - (المسمالك والمملك) أبو عبيد البكري: ص/ ٨١.

٤ راجع (نظرية بلاس إفانتي السياسية لإحياء الأندلس) مانويل هيجانو دلريو، ومانويل رويث روميرو، ترجمة عبد الغفور إسماعيل روزي، ١/ ٤٦١ - ٤٦٢، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٥ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٠٦.

عقد عبد العزيز بن موسى بن نصير صلحاً مع الأمير القوطي، ينص على بقائه على إمارته مقابل اعترافه بالتبعية للدولة الإسلامية، جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غندريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله ﷻ، وذمة محمد ﷺ ألا يقدم له، وألا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسيون ولا يفرق بينهم وبين نساءهم وأولادهم، ولا يقتلون، ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن: أورثلة، ومولة، ولورقة، وبلنثة، ولقنت، وإيه، وإش، وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتننا خبر علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غُرم الجزية، من ذلك على كل حر: دينار، وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة أفساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا"^١، و"كان المسلمون يحرصون على الوفاء بعهودهم حتى في حالات التي يبدو لهم أنهم خدعوا فيه"^٢.

وكانت معاملة المسلمين لأهل الكتاب في غاية اللطف ولم يقتصر هذه المعاملة على من أبرمت معهم المعاهدة دون الذين احتلت بلادهم عنوة، يقول حسين مؤنس: "ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعهدة"^٣، وضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم، وأدخلوهم في ذمتهم مقابل الجزية والخراج، لقد شكل الدين عاملاً قوياً ومؤثراً في بناء المجتمع، واستقرار الحياة، حيث عمَّ الرخاء والتسامح كل المدن الأندلسية التي فتحها المسلمون.

وثبت من خلال التاريخ أن المسلمين لم يكرهوا أحداً من أهل الأندلس في الدخول في الإسلام، ومع ذلك دخل أغلبهم الإسلام طواعية، وكانت عملية التحول هذه سريعة وتمت في فترة قصيرة^٤، فقد أرسل علي بن يوسف رسالة إلى الفقيه ابن ورد يستفتيه بقوله: "وكذلك ورد علينا أن قوماً من النصارى المعاهدين أسلموا في إشبيلية حرسها الله"^٥، وهذه الظاهرة تعتبر إفرازاً طبيعياً لجو التسامح، خاصة إذا قارنا أوضاعهم بأوضاعهم السابقة للفتح الإسلامي، تقول زيغريد هونكه: واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير، وداعية لديانته، لا بالتبشير، وإيفاد البعثات، وإنما بخلقه الكريم، وسلوكه الحميد، فكسب بذلك لدينه عدداً وفيراً لم تكن أية وسيلة مهما بلغت شأوها لتحقق ما حققه^٦.

وقد أطلق على الأندلسيين الذين دخلوا الإسلام (مسالمة)، وعلى ذراريهم (مولدون) - وفي الأسبانية القديمة (مولادي) -، وكانوا يطلقون على الأسبان المسيحيين (عجمية الأندلس)، و(نصارى الذمة)، أما اللفظة التي غلبت ودامت فهي (المستعربون)، فقد كانوا مستعربين ثقافة، ولساناً، وأسلوب حياة^٧.

لم يستقر المسلمون في الأندلس سادة مترفين كالقوط، بل انفتحوا على أهلها، وارتبطوا بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد منذ زمن مبكر جداً، وعاشوا متجاورين متساويين، وشاعت مصاهرة العائلات العربية النبيلة للمولدين، وانتساب بعضهم بألقاب أسيادهم، وهذا الامتزاج تم عن طريق الزواج أغلبه لا عن طريق الجوارى نظراً لأن الجوارى الأندلسيات كن يبعن بأثمان غالية كما ذكر الاصطخري^٨، وبهذا تصاعد الامتزاج وبشكل قوي وسريع في المجتمع الأندلسي

^١ - (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٥٧ .

^٢ - (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٧٤ .

^٣ - (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٦٤ .

^٤ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٧٩ .

^٥ - راجع (المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ٢٤١/١، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من الانقلابات والعطاءات)

^٦ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب): ص/ ٣٦٧ .

^٧ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٦١، ٤٦٣ - ٤٦٤ . (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية)

ليفى بروفنسال: ص/ ٨٠ - ٨١ .

^٨ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٥٧ - ٤٥٨ . نقلاً عن (مسالك الممالك) إبراهيم بن محمد الفارسي، المعروف بالاصطخري.

الأندلسي حتى غدا من الصعوبة بمكان التمييز بين عناصره^١، والمصادر تفيض بذكر زواج المسلمين بالمستعربين أيضاً، وهذا ما حدا بالجزيري إلى تأليف كتاب في الوثائق والعقود ضمته عدة صيغ من عقود نكاح الكتابية، مؤكداً أن العقد في هذه الحالة لا يختلف عن عقد نكاح المسلمة، واحتل الزواج بالنصرانية مكانة في التشريعات، والفتاوى الفقهية التي أكدت على أن المرأة النصرانية لا يعقد نكاحها أمير أو ولي مسلم^٢، وقد احتفظ المجتمع ببعض ملامح الشخصية الأندلسية، ففي مجال الأزياء برز التأثير الإفرنجي في الزي الأندلسي بجلاء، ومصطلح (فستان) عرف في اللغة العامية الأندلسية ويعني (ثياب الروم)^٣، ومن مظاهر التعايش في الأندلس انتشار العربية في أوساط النصارى ومع ذلك ظلت تستخدم اللهجة الرومانثية المشتقة من اللاتينية المطعمة بمفردان عربية وأيبيرية^٤.

تجلى براعة المسلمين وحنكته السياسية عندما تمكنوا من السيطرة على البلاد الواسعة مع أن أغلب أهل تلك الديار كانوا من غير المسلمين من أهل الذمة، فقد زودوا المناطق بالكوادر السياسية اللازمة، ونتيجة للمعاملة الحسنة، دخل الناس في دين الله أفواجاً دون ممارسة أي ضغط عليهم، حتى أصبحت المسالمة والمولدون يشكلون أغلب سكان الأندلس، ووجدت منذ العهد المبكر أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى، ومن الغريب حقاً أن هذا النبل - عدم إكراه أحد في الدخول في الإسلام أو الإصرار على دخولهم فيه - من المسلمين يرجعه ليفي بروفنسال حتى لا يتسبب في إضرار ببيت مال المسلمين، متجاهلاً أن هذا هو خلق الإسلام، وركيزة أساسية من ركائزه، ونتيجة لهذه الأخلاق النبيلة انصبغت الحياة الأندلسية قاطبة بصبغة إسلامية، مع أن العرب كانوا قلة في ذلك المجتمع^٥.

وقد نعم المستعربون في ظل الإسلام، وازدهرت مجتمعاتهم، وظلت طليطلة - عاصمة القوط القديمة - محتفظة تحت السيطرة الإسلامية بمكانتها كحاضرة دينية، وكانت المقر الدائم - حتى القرن الحادي عشر - لمطران مسيحي الأندلس الذي كان لا يتم تعيينه - مثله مثل قساوسة قرطبة وغيرها - إلا بعد موافقة العاهل الأموي في العاصمة قرطبة، ونتيجة تشربهم من الثقافة الإسلامية، فقد كان لهم رجال دين خاص بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغه خاصة هي عجمية أهل الأندلس^٦، ويعود ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تابعة لكنيسة روما روحياً وأدبياً، ومالياً، فقطع المسلمون تلك العلاقة وجعلوا للنصارى الأندلس كياناً مستقلاً، واندراج نصارى الأندلس ضمن النصرانية الشرقية وكانت كاثوليكية الأندلس، تختلف عن الطقوس التي سادت في الكنيسة الكاثوليكية، وأخذت تتأثر بمؤثرات نصرانية وإسلامية قادمة من الشرق^٧.

وكان لهم الحق بالاحتفاظ بكنائسهم، وممارسة شعائرهم الدينية فيها، وأحياناً كان يسمح لهم ببناء كنائس جديدة، وقد كان الحكم الأول قد عين حراسه منهم، وقد جلبهم من أصقاع شتى وبلاد الفرنجة، وقد أطلق عليهم المؤرخون العرب (الخرس)، وذلك لعدم معرفتهم بالعربية^٨، وعاشت طائفة المستعربين في ظل حكم عبد الرحمن الثاني حالة ازدهار، كما كانت شديدة التأثير بالنموذج الحياتي العربي، فكان هناك ضباط مسيحيون يشكلون جزءاً من حرسه الأمير، وكان هناك التجار وجباة الضرائب من المستعربين^٩، وترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً

^١ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨٠ - ٨١ .

^٢ - راجع (المرايطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ٢٣٨ ، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٣ - راجع (المرايطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ١ / ٢٤٠ ، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٤ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٥٤ .

^٥ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨٣ . و (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٥٢٧ .

^٦ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨١ . (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٦١ .

^٧ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٢٢ .

^٨ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٥٦ .

^٩ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٩١ .

أحراراً ينظمون أمورهم على النحو الذي أرادوه، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال، فظلوا يفصلون في أفضيتهم، وفقاً للقانون القوطي القديم، وظلت علاقاتهم وقساوستهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كان قبل الفتح، وكان يدبر أمور الجماعات المسيحية الكبيرة في المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة... وهو لقب كبير كان مقصوراً قبل ذلك على القوط، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد، فكان الفتح الإسلامي رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية، وكان يختار القومس - زعيم نصارى أهل الذمة - من قبل الحكام المسلمين، وتركوا لأهل الذمة انتخاب قمامسة النواحي والمدن وفق اختيارهم على خلاف ما كان عليه أيام القوط، وقد ترك المسلمون للجماعات النصرانية نظامها المدني، فكان القائمون بأمر الجماعة يجمعون الضرائب ويؤدونها إلى بيت المال، وكانوا يعينون القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم بحسب القانون القوطي، أما في المنازعات التي تقع بينهم وبين المسلمين فينظر فيها قاض مسلم^١، حتى في الفترات التي يشدد عليهم مقارنة بالفترات الأخرى، ففي دولة المرابطين مثلاً كان لهم قاض منهم، وترك لهم حرية العمل والعبادة، ويروى "أن مجموعة من نصارى غرناطة قصدت بلاط علي بن يوسف لتقديم شكوى ضد العسف والجور الذي تعرضت له من قبل عمر بن ينالة عامل المدينة، فلما ثبت للأمير حجتهم أمر بسجنه، وأنصفهم من ظلاماتهم، كما لم يجد القاضي ابن رشد أي مانع في تحويل حكم كان لصالح مسلم إلى نصراني ثبت أن حقه قد أغتصب، ويُستشف من روايات أخرى أن النصارى لم يمنعوا من تناول الخمر، كما سمح لهم باستغلال المرافق الاجتماعية الضرورية، إذ تنص إحدى فتاوى ابن رشد على عدم منعهم من استقاء المياه مع المسلمين من الصهاريج، وهو ما يعكس الانصهار الذي حدث على مستوى التعامل الاجتماعي"^٢، وحظى النصارى على شكل من أشكال التسامح الديني رغم بعض المضايقات التي تعرضوا لها، وقد أقرت الكتابات الأجنبية المنصفة بهذه الحقيقة، فوصفت علياً بن يوسف بـ (صديق النصارى)، وتتجلى صور التسامح في شغل المستعربين وظائف عليا في الدولة^٣، واستعملهم علي بن يوسف ضمن حرسه الخاص الخاص لأول مرة في تاريخ المغرب، واستمر استخدامهم في عهد خلفائه^٤، يقول التاميرا: "اتبع النصارى" اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني منذ الفتح، وكان أشرف العرب يحترمون النصارى"^٥، ونتيجة لهذه العقيدة القائمة على "التسامح امتدت آثارها لتصبغ العلاقات السياسية وتعطيها طابعاً مثالياً، من ذلك علاقة الدولة الإسلامية بممالك النصارى التي تميزت بمعاهدات الصلح التي تصل في كثير من الأحيان إلى تبادل الهدايا الفخمة من ذهب، وحرير، وخيل، وجمال"^٦.

وكان من البدهي أن يتولى أبناء المولدين مراكز قيادية ومهمة في الدولة الإسلامية باعتبارهم من المسلمين، لأن الذمي بمجرد دخوله إلى الإسلام ينتقل إلى صف المسلمين دون تمييز، والتاريخ يشهد لهذه المكانة التي تبوأها رجالاتهم في مجالات مختلفة، فمنهم: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث - حفيد أحد الموالى - ظل حاجباً للحكم خلال معظم عهده، وقاد معظم الحملات الحربية وعاش بعد وفاة سيده إلى أن مات في محرم سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م)^٧، وقد جاء في (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي في ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه كان من

١ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٧٩ - ٤٨٠، ٤٩٠ - ٤٩١.

٢ - (المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ١/ ٢٣٥، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٣ - مع أنهم كان لهم تأثير فيما بعد في استغلال الفتن والانقسامات.

٤ - راجع (المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ١/ ٢٣٧، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٥ - (مركزية التجربة الأندلسية وأثرها في الوعي التاريخي العربي الإسلامي) نور الدين الصغير: ١/ ١٦، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٦ - (مركزية التجربة الأندلسية وأثرها في الوعي التاريخي العربي الإسلامي) نور الدين الصغير: ١/ ١٦، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٧ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٥٤ - ١٥٥.

مسالمة الذمة، فملاً أشبيلية علماء، وبلاغة، ولساناً، حتى شَرقت به العرب^١، وكان ابن القوطية - أحد مرخي الأندلس المسلمين الذي عاش في القرن العاشر الميلادي - يفتخر بأصله الذي يرجع به إلى بيت الملك غيظشة، وهذا هو السبب في تلقيه بابن القوطية^٢، وقد حافظ كثير من أولئك على أسمائهم الأيبيرية مثل الحسن بن فره، وإبراهيم بن سفرج المدعو بابن همشك^٣.

وقد بلغ الرخاء والانفتاح على الآخر مبلغاً حتى أن "الأسير في الأندلس كان يتكيف بسرعة كبيرة مع الوسط الإسلامي، إذ لا يلبث إلا أن يصير مواطناً عادياً يمارس أنشطة مختلفة في انتظار افتكاكه الذي قد يطول، ولا سيما أن العديد من أسرى النصارى كانوا يستلذون الإقامة في ظل المجتمع الإسلامي الأندلسي فيرفضون العودة إلى ديارهم... مثال ذلك (العلاج) الذي كان محبوساً عند رجل فهرب منه ولحق بدار الحرب فأقام بها زمناً ثم أقبل إلى الموضع الذي كان فيه مأموراً بتجارة"^٤.

ومن الملاحظ أن هذه العلاقات أدت إلى تداخل بعض العادات بين المسلمين والنصارى، فقد سئل أبو الأصعب محمد التلمي عن ليلة الميلاد، وأن بعض المسلمين يجعلونها كأحد الأعياد، ويتهادون فيها بأنواع الطعام والتحف، ويترك الرجال والنساء العمل صبيحتها تعظيماً لليوم ويعدنه رأس السنة، فأفتى الفقيه بتحريم هذه الظاهرة بصورة قطعية^٥.

نعم اليهود في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس، وتعد تلك الفترة من الفترات الذهبية في تاريخهم، وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود، مما يفهم منه أنهم كانوا متساويين مع بقية السكان، كانت لليهود جاليات ذات أهمية في عدد من المراكز الحضارية في الأندلس، كما كانوا يشكلون أغلبية السكان في بعض المدن في بعض الفترات مثل (غرناطة) القديمة، ومدينة (اللسانة) الصغيرة، ويرأس كل جماعة منهم رجل يسمى الواحد منهم (البرور)، ولهؤلاء نفر مجلس يسمى (البروريم)، ولكل جماعة نفر من المستشارين يعرفون باليواعظيم (الواعظين)، ينتخبون أول الأمر، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من خلفهم، وكانوا مسؤولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة، وكانت لليهود بيعهم التي تقام فيها صلواتهم، يمارسون شعائرهم الدينية ويتمتعون بسائر حقوقهم، وكانت العلاقة بينهم وبين المسلمين متصلة مطلقة من كل قيد، مما ساعد على اندماجهم في الجماعة الإسلامية، فاستعربت ألسنتهم، وأخذوا لباس المسلمين، وأسلمت منهم جماعات، ووكل إليهم حراسة بعض المدن بعد ترك الجيوش الإسلامية لها لمواصلتها تقدمها، لقد تمتع اليهود في ظل الدولة الإسلامية بحقوق المواطنة كاملة، وكانت هذه المعاملة إلا إذا استثنينا الحركات المحدودة والقليلة المناهضة لليهود^٦، وجددهم بعد ذلك يضعون أنفسهم في خدمة الغزاة، وبعد أن استقر الأمر للأسبان بدأوا يطاردون اليهود ويستأصلون شأفتهم من البلاد^٧.

أما ملوك أسبانيا المسيحية فلم يسمحوا ببقاء جاليات مسلمة على أرضهم^٨، وقد تعرض نصارى الأندلس (المستعربون) إلى حملة اضطهاد دموية شرسة من قبل ملوك أسبانيا النصرانية حتى تم القضاء عليهم^٩، ويرى إنفانتي أن الأندلس باسمها الإسلامي قرينة للفكر الحر، وأن الاسترداد أتى بالتراجع التاريخي للأندلس، لقد فتح الاضطهاد السياسي الباب لنفي

١ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٦٤ . نقلاً عن (علماء الأندلس) ترجمة ٦٤٧ .

٢ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٤٦٦ .

٣ - راجع (المرايطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ٢٤٠/١ - ٢٤١، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٤ - (جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية) عمر بنميرة: ١/ ٢١٣، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

٥ - راجع (المعيار) أحمد بن يحيى الوشيري: ١١/ ١٥٢ .

٦ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٤٤ - ٥٤٦، و(تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨٢ - ٨٣ .

٧ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٤٦ - ٥٤٧ .

٨ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ٨٢ .

٩ - راجع (فجر الأندلس) حسن مؤنس: ص/ ٥٢٣ - ٥٢٤ .

الآلاف من الأندلسيين - مسلمين ويهود - كما فتح الباب أيضاً لمجيء حكومة همجية قضائياً واقتصادياً، ولم تجلب معها سوى البؤس والاضطهاد، شاع فيها القتل والسطو تحت ظل الصليب، والأرض سلبت منا، ووزعت بإقطاعات كبيرة لقادة جند الاحتلال، والأندلسيون الذين كانوا قد حولوا الأرض إلى جنان حُكم عليهم بالعبودية لأسيادهم، وفي إشبيلية عاصمة الأندلس خلال سنوات اضطهاد محاكم التفتيش كما قدر (إنفانتي) أحرقت ألقان من الناس أحياء في حقول طبلاطة، أعقبه سجن سبعة عشر ألفاً بعد مصادرة ممتلكاتهم، المسلمون الذين أُجبروا على التنصير حديثاً تحت وطأة الإجراءات الصارمة التي استهانتها (إيزابيلا) توالى معاناتهم لتصل إلى ذروتها بالانتصار الذي حققه عليهم دون خوان النمساوي، الذي قرن عمله بقسوة الطرد النهائي، الأمر الذي جعل (مارمول) يطلق صرخة يأس قائلًا بأن جنود الملك ليسوا سوى عصابة من الخارجين على القانون، وفي تلك الحقبة ظهرت أسطورة (سنتياجو)^١، القديس الذي لزال حياً، قاتل المسلمين، الذي يحمل السيف بيد، والصليب باليد الأخرى^٢.

المبحث الثالث - التجربة الأندلسية غرة في جبين الحضارة الإنسانية:

تمثل التجربة الأندلسية حلقة مهمة في سجل تاريخ المسلمين سواء كان ذلك على مستوى عطائها الحضاري المحلي أو على مستوى إشعاعها العالمي الخارجي، كانت بوابة للرافد الثقافي الإسلامي، ومركز إشعاع، ونبراس هدى تبديد ظلمات الجهل في أوروبا- التي كانت غارقة في حمأة الجهل، وخشونة الأخلاق، إن معاملة المسلمين لأهل الأندلس بالأخلاق الرفيعة، وتحول العقيدة إلى سلوك عملي مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ونتيجة لذلك "ازدهرت حضارة العرب في إسبانية وبلغت أوجها برغم أنهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر والثقافة كما وجدوا في البلدان الأخرى التي فتحوها مثل مصر، وسورية، والعراق، وفارس، تلك البلدان التي مثلت شعوبها دوراً كبيراً في مزج الحضارات الهلينية، والبيزنطية، والفارسية، والهندية بالحضارة العربية... برغم هذا فقد استطاع العرب أن يقدموا للبشرية أكبر دليل على أنهم أصحاب حضارة وأهل فكر... فالحضارة الأندلسية التي كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها، لم تكن قائمة على أساس فارسي، أو إغريقي، لقد كانت عربية صرفة أكثر من الحضارة العربية في أي مكان آخر، وما إن انحسرت تلك الموجة الحضارية عن إسبانية حتى هوت تلك البلاد في سكون مميت، وفقر مدقع، فليس هناك من دليل أوضح من هذا على قدرة العرب على الخلق والابتكار، ... وفي خلال مدة حكمهم التي دامت ٨٠٠ سنة خلقت الأسر العربية الحاكمة للأندلس حضارة زاهرة"^٣.

وكانت نتيجة هذا الانفتاح والحوار وحرية الرأي أن تقدمت الأندلس في جميع النواحي، وسنشير إلى عجالة إلى أهم المجالات التي أفرزتها المعاملة الطيبة، والانفتاح على الآخر:

المجال الأول - التقدم في المجال العلمي: يرى (إنفانتي) أن الأندلس كانت مركزاً للتألق الثقافي، والحرية، كسراج وحيد أنار حلقة العصور الوسطى، وكانت حرة، ولكنها الآن مستترقة، خلال القرون الأندلسية تلك كان الكل قادراً على القراءة والكتابة، وكانت الأندلس أرض صناعة، متقدمة في طرق الزراعة، يضاف إلى ذلك أن الكل كان يمتطي حصاناً بدلاً من المشي على قدمية، لقد تلالأت بأنوارها أوروبا، وبددت ظلوماتها، قرطبة كانت مدينة المكتبات، وذات ولع بالعلوم، كما كانت مدينة مدارس، وجامعات، وأطباء، وعلماء كبار؛ كذلك كانت

^١ - هذه الأسطورة تقول: أنه أحد مريدي المسيح عليه السلام، دفن في أقصى الشمال الغربي من الجزيرة الأيبيرية، وهو الذي أخرج المسلمين من أسبانيا.

^٢ - راجع (نظرية بلاس إنفانتي السياسية لإحياء الأندلس) مانويل هيجانو دلريو، ومانويل رويث روميرو، ترجمة عبد الغفور إسماعيل روزي، ١/ ٤٦٥ - ٤٦٦، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)، واستميج الفارئ الكريم أن أنقل هذه العبارة من إنفانتي: ١ / ٤٧١: "الأندلسيون الضعفاء المحرومون من قرون، والذين لزالوا في أراضي أسلافهم كانوا يذنون من الأسلاك الشائكة المحيطة بها بقلوب محطمة ببيكون الإسلام، معلقين أنظارهم الزانعة، ويحملون أجسامهم الضامرة، تملؤهم ذكريات ما فعله ملانكة الإقطاع الأوربي السود، الذين حولوها إلى حقول جرداء لا ينمو فيها سوى الأعشاب الضارة، بعد أن كانت مداً غذائياً نمت عليها حياة الذين عاشوا فيها في أيامها القديمة والوسطى، تلك الحياة التي أمنت بحتمية العمل من أجل الابتكار تدفعها روح دافعة، وجسد مراعي للتوفيق بين المسؤولية الابتكارية والواجب الألهي".

^٣ - (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٤٧٤ - ٤٧٥.

إشبيلية بعلمائها، من أمثال أبي زكريا، والزيات، وابن مطرف، والحال نفسه في غرناطة، ومالقة، والمرية، وجيان أيام علمائها ومفكريها البارزين^١، ويقول (برفو): "العلم هبة عظيمة الشأن الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر"^٢.

"ولم يكن ملوك الطوائف وحدهم الذين شجّعوا العلماء وازدهرت في عهدهم العلوم بل حدث ذلك أيضاً في عهد الإمارة والخلافة، كما كانت كل مدن الأندلس تزدهر بعلمائها وحركاتها الأدبية إلى جانب النهضة الاقتصادية والاجتماعية"^٣، كانت ينبوع عطاء أبهر العالم بعطائه الذي لا ينضب في مجالات المعرفة والفنون الإنسانية، ويبدو أن الجانب العلمي كان من أبرز الظواهر التي ميزت نقل التراث المعرفي الإسلامي إلى أوروبا، ولا أدل على ذلك ما قام به (ألفونسو) الملقب بالعالم الذي عرف النقل في عهده ذروته، والذي لم يهمل أي فرع من فروع العلم والمعرفة الإسلامية، ومن الغريب حقاً أن كثيراً من أولئك الذي استفادوا من دور العلم في الأندلس ونقلوا التراث الحضاري نجدهم يغفلون عن عمد عن أصل معارفهم، من بين هؤلاء (جربرت) (٩٣٠ - ١٠٠٣م)، الذي تعلق بالعرب، وتلمذ على أيد أساتذة عرب، وتعلم أشياء لم يكن أحد في أوروبا ليحلم أن يسمع بها، وكان أهم ما تعلمه الرياضيات - تعلم نظام الأرقام والأعداد العربية - والفلك، وقد أشاع علوم الرياضيات في الغرب، وأدخل الأرقام العربية فيها، وقد طلب هذه المعارف في قرطبة وإشبيلية^٤، و"تارتوسوس) الذي غمر العالم الغربي بالحكمة الأندلسية"^٥.

وقد كان عطاء الأندلس عطاء غير محدود في مجالات العلوم المختلفة، الأدب، والشعر، والتشريع، والطب، والتاريخ، والطبيعة، والكيمياء، والجبر، والتقويم، والترقيم، ومختلف الفنون والصناعات، فو أوسع من أن نلم ببعضه في هذه العجالة، ولقد كتب بعض الباحثين في هذا الشأن من الغربيين المنصفين أسفاراً قيمة^٦، فقد استفاد الغرب من المسلمين في علم الفلك ومن أوائل من استفاد من علمهم أوروبا العالم الفلكي الكبير الزرقالي من مدينة طليطلة في مقدمة علماء الفلك الأندلسيين، فقد أجرى ما يزيد على أربعمئة بحث، وتوصل إلى أن أوج الشمس لدى طلوع النهار يعادل أوج الشمس لدى هبوط الليل، وأجرى حساب قيمة هذا الأوج، وقد ترجم أعمال الزرقاني الفلكية (جيرارد الكريموني) إلى اللاتينية، وقد ذكر كوبرنيكوس عام ١٥٣٠م اسمي الزرقاني، والبتاني في كتابه، وقد اشتهر في الغرب باسم (أرزخال) فهو أشهر من بنى الآلات، وهو الذي اخترع (الصفحة)، ودخلت إلى ميدان علم الفلك تحت اسم (الاستطرلاب الزرقالي)^٧.

وكانت الأندلس بمثابة حلقة وصل بين العالم الإسلامي، والعالم الغربي، فقد نشطت الحركة العلمية الرحلات الدراسية لطلب العلم بزيارة شمال إفريقيا، وحواضر العلم في الشرق مكة، وبغداد، ودمشق، والقاهرة، إضافة إلى زيارة الأماكن المقدسة، والتجارة، وكان تأثير الشرق العباسي وحضارة بغداد على الأندلس واضحاً^٨، يقول الأديب الفرنسي هنري بيريز: "يتطلع الأمويون في أسبانيا دائماً نحو العباسيين في بغداد، والأدب الذي تكون في قرطبة وفي تلك

^١ - راجع (نظرية بلاس إنفانتي السياسية لإحياء الأندلس) مانويل هيجانو دلريو، ومانويل رويث روميرو، ترجمة عبد الغفور إسماعيل روزي، ١/ ٤٦٢، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٢ - (فضل الحضارة الإسلامية العربية على العلوم) زكريا هاشم زكريا: ٣١٤
^٣ - (مركزية التجربة الأندلسية وأثرها في الوعي التاريخي العربي الإسلامي) نور الدين الصغير: ١/ ٢٣، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٤ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٨٠ - ٨١.
^٥ - راجع (نظرية بلاس إنفانتي السياسية لإحياء الأندلس) مانويل هيجانو دلريو، ومانويل رويث روميرو، ترجمة عبد الغفور إسماعيل روزي، ١/ ٤٦٤، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٦ - من أمثال غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب)، وزيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تستطع على الغرب)، توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام).

^٧ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ١٥٢.
^٨ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٥٤.

القصور الصغيرة حول الحكام في المحافظات ما هو إلا محاكاة وتقليد لما حدث في العراق^١، يقول شوقي ضيف: "ارتبطت الأندلس في علمها وفلسفتها بالمشرق، فقد كانت تستورد منه نموذجها الثقافي، تارة يذهب أهله إليه ليتعلموا على يديه، وتارة يُرسل هو إليه علماء كأبي علي القالي على سبيل المثال"^٢، كانت الأندلس حاضرة من حواضر العلم، تقول (زيغريد هونكة): "كان التعليم في العالم الإسلامي ميسراً لجميع الناس، وكان الأطفال من جميع الطبقات، يقصدون المدارس الأولية، ولقاء نفقات ضئيلة جداً، وفي إسبانيا المسلمة كان التعليم مجانياً، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأولاد الفقراء، وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين كانت أوروبا بين القرنين التاسع والثاني عشر موطناً للأمية، وقد بلغت نسبتها ٩٥%، وكان شارلمان ملك فرنسا العظيم أمياً، ولم يحاول تعلم القراءة والكتابة إلا وهو في سن متقدمة، حتى رجال الدين في الأديرة لم تكن بينهم غير قلة قليلة جداً، تعرف القراءة والكتابة"^٣، وذكرت أن الحكم الثاني افتتح حوالي عام ٩٦٥ في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء، بالإضافة إلى المدارس الثمانية التي كانت فيها من قبل^٤. واستمر اهتمام الأمراء بالعلم ففي قرطبة وحدها أنشأت ٨٠٠ مدرسة، و١٧ مدرسة عليا، و٢٠ مكتبة فيها عشرات الآلاف من الكتب^٥.

ولعل أروع شهادة أتت على لسان شاعرة نصرانية الراهبة هروزفيتا وهي في صومعتها بدير (جاندرزهايم) بسكونيا، إعجابها بقرطبة فتقول أغنية جميلة: قرطبة المدينة الشابة هي زينة الدنيا، قرطبة شهيرة بجمالها، فخورة بقوتها، قرطبة هي التي حوت كل شيء تزهو به المدن^٦.

أما أشهر المترجمين الذين قاموا بترجمة العلوم إلى اللغات الأوروبية فهم:

- أديلار: راهب إنجليزي بندكتي من مدينة باث، ذاع صيته سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م، ولقب بالفيلسوف الإنجليزي، ترجم أصول إقليدس، وكتاب الخوارزمي في الحساب، وأصبحا من المراجع الأساسية للرياضيات بأوروبا.
- هوجو دي سنكلا، أو سنكتالنسيس: عاش في النصف الأول من القرن ٦ هـ / ١٢ م، كان مولعاً بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية.
- إبراهيم بن عزرا: ولد بطليطلة (٤٩١-٥٥٥ هـ) الموافق (١٠٩٧-١١٦٠ م).
- جيرارد الكريموني (٥٠٨-٥٨٣ هـ) الموافق (١١١٤-١١٨٧ م) ولد بمدينة كريمونا بلمبرديا المقاطعة الإيطالية، تعلم العربية وترجم عدة كتب في الطب والفلسفة والفلك.
- يوحنا الإشبيلي (ابن دريد) يهودي اعتنق النصرانية، وخدم كبير أساقفة طليطلة اهتم بالكتب العربية العربية في الفلسفة، والرياضيات، والطب.
- دمنقو قنديسافي: ترجم كتب في الفلسفة.
- ميخائيل سكوت من أشهر النقلة نقل كتب الفلسفة^٧.
- هرمن الدلمسي من المترجمين، توفي ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م، اهتم خاصة بالفلسفة والأدب.

ولم يكن دور الأندلس يقتصر في إثراء الحياة العلمية في الأندلس وأوروبا، بل كان لها دور في إثراء إثراء العلمي في المغرب العربي بفعل هجرة علماء الأندلس إلى العواصم المغرب العربي مثل: تونس، والقيروان، ومراكش، وفارس، والجزائر، وبجاية^٨.

^١ - (انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا) علي دياب، ١١٠ / ٣، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٢ - (ابن زيدون) ص / ٩ - ١٠.

^٣ - (شمس العرب تستطع على الغرب) زكريد هونكة: ص / ٢٩٧.

^٤ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكة: ص / ٣٩٤.

^٥ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكة: ص / ٤٩٩.

^٦ - (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكة: ص / ٥٠٠، و. (مركزية التجربة الأندلسية وأثرها في الوعي التاريخي العربي الإسلامي) نور الدين الصغير: ١ / ٢١، مقال في (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)،

^٧ - راجع (دور مدرسة الترجمة بطليطلة في نقل العلوم إلى أوروبا) جمعة شيخة، ١٣٦ / ٢، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

وكانت نتيجة هذا الانفتاح والحوار وحرية الرأي أن تقدمت الأندلس في جميع النواحي، واجتذبت الأندلس طلاب العلم من الشرق والغرب بمدارسها العليا، ومكتبتها العظيمة التي جمع لها الخليفة الحكم الثاني - وهو من أشهر علماء عصره - نصف مليون من الكتب القيمة جمعها له عشرات من رجاله، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته^١.

ففي العلاج، بينما كان الإغريق يسلمون الرجل الذي يشكو ضعفاً في قواه العقلية إلى أهله ليحبسوه عن العالم، ويمنعوا ضرره عن المجتمع، ظلت أوروبا تعامل هؤلاء كمجرمين، فيُسجنون ويُعذبون، ويُهانون، حتى القرن التاسع، بينما كان المسلمون يخصصون البيمارستانات الخاصة، والعيادات المنظمة لاستقبالهم، والمراقبة والإشراف على علاجهم، ففي أسبانية وحدها أكثر من مستشفى لعلاج هذه الحالات^٢.

المجال الثاني - انتشار الثقافة الإسلامية:

انتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الأندلس حتى بين النصارى حتى أطلق عليهم المستعربون، وكان المستعربون ينفقون الأموال لاقتناء الكتب العربية، ويسعدون بقراءة الانتاج الأدبي العربي القديم والحديث، ويحفظون الشعر العربي القديم، ويأسف ألفروا القرطبي على هذه الحالة فيقول: "إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين، والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأنجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسول؟ ياللعنة! إن الموهيبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم، ياللألم! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ، فأما عن الكتاب في لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها بأسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً"^٣، وأصبحت الأندلس مهوى أفئدة طلاب المعرفة من أوروبا، نقل زكريا هاشم زكريا عن (برفو) في كتاب (تكوين البشرية في القرن التاسع عشر): "إن رئيس دير كلوني كان يأسف أثناء إقامته بالأندلس، لما كان يشاهد من تهافت الطلبة من فرنسا، وألمانيا، وإنكلترا على مراكز العلم العربية"^٤.

شعرت بعض الكنائس النصرانية بالمرارة لانتشار الثقافة الإسلامية في أوساط المستعربين، ووقف بجانبهم بعض عامة المستعربين، وترجم حزب المعارضة من المستعربين كل من القس (ايولوخيو) وصديقه كاتب السر (ألبارو)، وكان مقصدهم استقزاز المسلمين على المستعربين حتى يحصل الصدام بينهم وبين المسلمين، ومن ثم لم يعد يتأثرون بهم، أو يقاومونهم، فكان يقوم أفراد من هذا الجماعة بالتطاول الرسول الكريم ﷺ، أو الإسلام على مرأ من الناس في المسجد، أو في دار القضاء فكان يحكم عليه بالموت، وتكررت الحوادث، ولم يتخذ تدابير ضد المستعربين، وكان أغليبتهم ضد هذه الأعمال، وقامت الكنيسة عام ٨٥٢م بإصدار قرار يمنع من هذه الأعمال التي لا طائل من ورائها، وتم لاحقاً إعدام زعيم هذه الحركة بعد أن تطاول

^١ - راجع (التجربة الأندلسية بالجزائر: مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط) ناصر الدين مولود سعيدوني، ٧٩ / ٣، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٢ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٥٣.

^٣ - راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٢٥٥.

^٤ - (تاريخ الفكر الأندلسي) بالنتيا: ص/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

^٥ - (فضل الحضارة الإسلامية العربية على العلوم) زكريا هاشم زكريا: ص/ ٣١٤.

المعصوم ﷺ، ثم مالبت أن توقف هذه الحركة من تلقاء نفسها بعد مقتل زعيمها، وتم القضاء عليها^١.

المجال الرابع - التقدم في مجالات العمران واستثمار الخيرات: استمر مستوى المعيشة في الأندلس في الارتفاع بفضل المجهود الكبير الذي بذل للتعمير، وعرفت العقليّة الإسلامية كيف يستثمر خيرات الأرض، فحفر المسلمون الآبار، وتلقوا مياه الجبال المتساقطة في أحواض كبيرة بلغت مساحة بعضها خمسة كيلومترات مربعة تحتزن المياه لوقت الحاجة تخرج في قنوات ضخمة توزعها على الحقول حسب الحاجة، واستفادوا من سفوح الجبال ما كان يظن أحد في وقتهم أن يستفاد منها، وزرعوا أشجار التفاح، والخوخ، واللوز، والمشمش، والبرتقال، والكستناء، والموز، والنخيل، كما اهتموا اهتماماً خاصاً بالقطن، وقصب السكر، وغيرها من النباتات والأشجار التي ما زالت حتى يومنا هذا تمثل جزءاً هاماً من صادرات أسبانيا، وما زالت كثيراً منها تحمل أسماء عربية، وبفضل تلك الجهود في الزراعة كانت الأرض في زمن عبد الرحمن الثالث تنتج ثلاثة أو أربعة مواسم، كما اهتموا بالمناجم التي ظلت آلاف السنين لا تمس، واستخرجوا منها كميات هائلة من الحديد الخام، والنحاس، والزنابق، وبدأت صناعات عدة تنتشر في البلاد، ولم يكن للغرب فيها أية دراية، وأصبح كل أندلسي يركب بغلته مختالاً وقد أراحه الخير العميم من عناء السير الشاق على الأقدام، وجذبت الأجور العالية في الأندلس الآلاف من الجنود، والزراع، والصناع، والتجار لينعموا بذلك الرخاء، ولينعموا بخيرات تلك الأراضي بأثمان زهيدة، وزاد عدد السكان في الجزء العربي عام ٩٥٠م على ٣٠ مليون نسمة، وانتشرت حول قرطبة آلاف القرى الظاهرة وقد عمها الرخاء، وكان للنظم الإدارية الدقيقة الممتازة التي وضعها عبد الرحمن الأكبر الفضل الأكبر في تخفيض المصروفات التي تنفقها الدولة على شؤونها، وتسليح جيشها الذي وصفه رسول القيصر أوتو الأكبر بأنه أحسن الجيوش تنظيمًا، وتسليحًا، وقد شيد عبد الرحمن بالفنائض الجسور، والمساجد، وشق الطرق، والقنوات مما قضى على البطالة.

وكانت مدينة الزهراء التي أسسها عبد الرحمن بالقرب من قرطبة بحدائقها الغناء وقصورها الفاخرة المزينة بالذهب، والمرمر، والبلور، وخشب الأبنوس، والجواهر النادرة أكبر أثر تركه من بعده، يحكي قصة أمجاده، وعظمة بلاده، وزهراء كانت جارية لعبد الرحمن أحبها حباً شديداً، وكانت قد تركت عند وفاتها ثروة كبيرة أوصت بإنفاقها في دفع فدية من بقي من المسلمين في الأسر عند الفرنج، ولما فشلت مفاوضات عبد الرحمن مع الفرنجة لتحقيق رغبة حبيبته الراحلة انفق ثروتها على بناء تلك المدينة، وأطلق عليها اسمها تخليداً لذكراها، وكان قصر الخليفة تحفة فنية رائعة أجمع كل من شاهدها من القادمين من مختلف البلدان على أنهم لم يشاهدوا في حياتهم أروع منها، واحتذى سراة القوم حذو خليفتهم فأنشأوا آلاف القصور في كل أنحاء البلاد كما أقاموا العديد من الحدائق العامة حيث يستظل الناس تحت أشجار الزيتون والنخيل، والعنب، والسرو، وفي المنطقة الواقعة ما بين نفاذا وسيرامورينا وجد اثنا عشر ألف بلدة منها ستة عواصم، وثمانون مدينة كبيرة، وثلاثمائة مدينة صغيرة، وبرغم هذا ظلت قرطبة سيدة المدن، وكانت بضواحيها الثماني والعشرين في عصر عبد الرحمن منتصف القرن العاشر أكبر مدن أوروبا كلها، وعلاوة على تلك القصور حوت قرطبة ١٣٠٠٠ منزل، و٦٠٠ مسجد، و٣٠٠ حمام، و٨٠٠ مدرسة، و١٧ مدرسة عليا، و٢٠ مكتبة فيها عشرات الآلاف من الكتب كان حال ذلك قرطبة في وقت لم يتجاوز فيه تعداد أي من مدن الأوروبية ٣٠ ألف نسمة إذا استثنينا القسطنطينية، ولم يكن في هذه المدن في أي إقليم أوربي يملك مدرسة عليا أو مستشفى^٢، ولم يقتصر هذا الاهتمام على فترة معينة، بل أقبل الأمراء على إنشاء المساجد ودور العلم، والاهتمام بالعلماء، حتى في زمن الطوائف، ولم يقتصر أعمال الخير على الرجال دون النساء، فقد زخر تاريخ الأندلس بنساء فاضلات قمن بأعمال الخير، ومن ذلك أن (عجب) - وهي من

^١ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٩٣ - ١٩٦ .

^٢ - (شمس العرب تنسطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٤٩٦ - ٥٠٠ .

نساء الحكم الأول - بنّت مسجداً على نفقتها الخاصة بالحي الغربي لقرطبة، وأنشأت على ضفاف الوادي الكبير حديقة ضخمة سميت بـ (منية عجب)، وخصصت ريعها للإنفاق على نزلاء مستشفى الجذام القريبة، وقامت محظية أخرى للحكم الأول تدعى (متعة) على نفقتها الخاصة ببناء مقابر للمسلمين، وشيدت مسجداً ظلت ذكراه عالقة بأذهان القرطبيين حتى القرن الثاني عشر^١، وقام بعض نساء عبد الرحمن الثاني ببناء مساجد في الأحياء المختلفة، وتسمى هذه المساجد بأسمائهن مثلما نجده في مسجد طروب، ومسجد فجر، ومسجد الشفا.

المجال الخامس - خلق أجواء مناسبة للحوار في الأندلس: هذه الأجواء المنفتحة على الآخر فتح باب الحوار الهادئ مع الآخر في الأندلس على مصراعية اللهم إلا تلك الفترات التي قام بها فريق المعارضة من المستعربين لإفساد أجواء الحوار، وخلق نوع من الصراع حتى لا يتأثر المستعربون بالمسلمين، وكانوا يتناولون على الدين الإسلامي ونبيه ﷺ بالسب.

"إن تعايش البربر، والعرب، والجليقيين، والقطلانين، والصقالبة، والأديان الثلاثة اليهودية، والنصرانية، والإسلام خلال الحقبة الأندلسية توضح تماماً سمة الشخصية الوطنية الأندلسية القائمة على كراهية الحروب، والانفتاح، والبعد عن الإقليميات، والوطنيات، هذه المعطيات عكسها بوضوح ذلك الشاعر القائل (الأندلس لنفسها، وإسبانيا، وللإنسانية)، العبارة تلك حسب رأيي إنفانتي، هي ليست صيغة خطابية، ولكن على النقيض من ذلك تمثل روح التداخل في التاريخ الأندلسي"^٢ وهذه الأجواء كانت نموذجية للحوار، وأدت إلى الاهتمام بعلم مقارنة الأديان، وقد شهد بذلك الغربيون، يقول آدم متز: "إن تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى - وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى - كان سبباً في نشأة علم لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى في الغرب، هو علم مقارنة الأديان، أو مقارنة الملل، ويقول: إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وأوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين.. يتمتعون بنوع من التسامح لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، الإقبال على هذا العلم بشغف عظيم"^٣.

وقد ذكره ابن رشيق في كتابه (الرسائل والوسائل) أنه: "ورد على مدينة مرسية جماعة من القساوسة موفدين من قبل ملكهم، وأنهم نظّموا مناظرة مع ابن رشيق موضوعها الدين الإسلامي والدين المسيحي، والنبوة..."^٤.

ومن ذلك أن "الأسقف ميكائيل بن عبد العزيز الذي عاش في فاس مدة (١١ سنة) قضاها إبان إبعاده من طرف المرابطين فاستغلها فرصة لكتابة نسخة من الإنجيل بالعربية ظلت محفوظة بخزانة الأسكوريال إلى حدود القرن ١٦ م قبل أن تمتد إليها يد الضياع"^٥.

هذه الأجواء مهدت لإخراج أعظم المؤلفات حتى ذلك العصر في علم مقارنة الأديان ونبوغ علماء في هذا العلم حتى شهد لهم الغرب، فقد كان كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم، وقد أشاد (هـ. بنارد دي لابلوي) في كتابه (الدراسة المقارنة للأديان) بابن حزم الأندلسي باعتباره رائداً لمقارنة الأديان في الفكر الإنساني كله، أما الأستاذ (إريس ج. شارب) فيرى أن الشهرستاني هو الذي كتب أول تاريخ للأديان في العالم^٦، إن الحديث عن الأديان كان في العصور السابقة إما مغموراً في لجة الأحاديث عن شؤون الحياة، وإما مدفوعاً في تيار البحوث النفسية أو الفلسفية، أو الجدلية، أصبح في كتب المسلمين دراسة وصفية واقعية، منعزلة عن سائر

^١ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي بروفنسال: ص/ ١٥٥.

^٢ - راجع (نظرية بلاس إنفانتي السياسية لإحياء الأندلس) مانويل هيجانو دلريو، ومانويل رويث روميرو، ترجمة عبد الغفور إسماعيل روزي، ١/ ٤٦٤، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٣ - (بحوث في مقارنة الأديان) محمد الشرقاوي: ص/ ٣٤٧، نقلاً عن (الحضارة الإسلامية) آدم متز، ترجمة أبو ريده، الهيئة المصرية العامة بمصر، ص/ ٢٨٨.

^٤ - (المعيار): ١١/ ١٥٥.

^٥ - (المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس - نموذج من عطاءات الحضارة الأندلسية) إبراهيم القادري بوتشيش، ١/ ٢٣٩، مقال ضمن (السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات)

^٦ - راجع (بحوث في مقارنة الأديان) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ٣٣.

العلوم والفنون، شاملة لكل الأديان، فكان لهم بذلك فضل السبق في تدوينه علماً مستقلاً، قبل أن تعرف أوروبا الحديثة بعشرة قرون، إن الفكر الإسلامي منذ القرن الثاني للهجرة قد انفتح على أديان العالم، وجعلها موضوعاً مستقلاً للدراسة والبحث، ووضع العلماء لذلك مناهج علمية سديدة، فوصفوا أديان العالم، وحللوها وقارنوا بينها، وأرخوا لها، وانتقدوا بعضها، وكانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها، ويستقونها من منابعها الأولى، وهكذا أنشؤوا علماً مستقلاً له منهجه العلمي السديد^١.

"واستمرت مدرسة قرطبة للدراسات العبرية تمثل مركز الصدارة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري)، وتوسعت حتى أصبحت داراً للإفتاء للشريعة اليهودية"^٢. يقول الفيلسوف اليهودي سبينوزا الذي نقد العهد القديم أن ابن عزرا الذي كان في الأندلس هو أول من تنبه إلى أخطاء العهد القديم، فيقول: "ولهذا السبب فإن ابن عزرا - وهو رجل كان فكره حراً إلى حد ما، ولم يكن علمه يستهان به، وهو أول من تنبه إلى هذا الخطأ - فيما أعلم - ولم يجرؤ على الإفصاح عن رأيه صراحة، واكتفى بالإشارة إليه بألفاظ مبهمة، أما أنا فلن أخشى توضيحها وإظهار الحق ناصعاً"^٣، قال الدكتور محمد الشرقاوي معلقاً على كلام سبينوزا: "كما يلاحظ أن سبينوزا الذي جاء بعده بستة قرون ونصف قد أورد نفس الشواهد تقريباً، وعلق عليها بألفاظ ابن حزم، مثل قوله: (إنها تاريخ مؤلف)، و(ألف بعد موسى بقرون عديدة)، و(أن كتاب موسى كان يقرأ في مجلس واحد) إلخ، وهذا يجعلنا نقرر أن باروخ سبينوزا لم يكن منصفاً عندما ذكر أن ابن عزرا الغرناطي كان أول من شك في نسبة التوراة إلى موسى عليه السلام"^٤.

الفصل الثاني

رسالة الباجي

المبحث الأول - أهمية الرسالة:

هذه الرسالة هي رد على رسالة راهب فرنسا، وهاتان الوثيقتان تكشفان عن جانب مهم من العلاقات الثقافية، والحوار الحضاري، والجدل بين المسلمين في الأندلس والنصارى في أوروبا في القرن الخامس الهجري.

- الوثيقة الأولى: وهي رسالة بعث بها راهب فرنسا إلى الأمير المسلم المقنن بالله، حاكم سرقسطة، يدعو فيها إلى الدخول في دين النصارى، ويشرح له أسسه وقواعده، ومحاسنه.
- الوثيقة الثانية: نص الجواب الذي كلف الأمير القاضي أبا الوليد الباجي بكتابته رداً على رسالة راهب الفرنسي، بعد مقابلة مبعوثيه ومناقشتهم.

وهاتان الرسالتان عرفتا لدى الباحثين في الغرب معرفة جيدة، وقد ترجمتا إلى عدة لغات أوروبية، وفي عالمنا الإسلامي لم يعرفهما إلا نفر يسير جداً من الباحثين المسلمين المتخصصين، حتى قام سعادة الدكتور قاسم السامرائي بتقديم نسخة مصورة منهما إلى سعادة الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، والذي قام بدوره مشكوراً بتحقيقهما ونشرهما في مجلة (هذه سبيلي) التي تصدرها المعهد العالي للقضاء في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ثم قام بنشرهما في كتاب مستقل، فجزاهما الله عنا كل خير.

^١ - راجع (الدين) محمد عبد الله دراز: ص/ ٢١ - ٢٢.

^٢ - (الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين) عصمت عبد اللطيف دندش، ص/ ٢٥٧.

^٣ - (الرسالة) : ص/ ٢٦٦.

^٤ - (بحوث في مقارنة الأديان) : ص/ ١٨٩.

يقول (د.م. دنلوب) : "إن الرسالتين وثيقتان، مهمتان تكشفان جانباً من جوانب الجدل الديني المتبادل بين المسلمين والنصارى في الأندلس من جهة، وتظهران الاحتكاك الثقافي بين الإسلام والغرب من جهة أخرى"^١.

المبحث الثاني - رسالة راهب فرنسا:

السؤال المتبادر للذهن من راهب فرنسا؟ الرسالة لا تشير إلى اسم الراهب، والمصادر العربية لا تسعنا في هذا الجانب وتكتفي بذكر أنه راهب فرنسا، وقد أشار المستشرق الإنجليزي (د.م. دنلوب) - الذي قام بترجمة الرسالة، ونشر دراسة وجيزة عنها - أنه لا يعرف الكثير عن سرقسطة تحت حكم بني هود الذي ينتمي إليه المقنتر بالله، الذي حكم سرقسطة من سنة ٤٣٨ هـ / ٤٧٤ هـ، ١٠٤٦ م - ١٠٨١ م، ثم نص على أن الراهب الفرنسي صاحب الرسالة هو القديس (هيو) كبير رهبان دير: cluny، وكان قد توسّد سدة هذا الدير ما بين عامي ١٠٤٩ و ١١٠٩ م.^٢ يظهر من رسالة راهب فرنسا أنه ابتداءً بإرسال الرسائل إلى المقنتر، فقد جاء فيها: "... لما انتهى إلينا - أيها الأمير العزيز - أمرك الرفيع في الدنيا، وبصيرتك في تبين أحوالها المتغيرة رأينا أن نراسلك وندعوك، لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني"^٣.

تكشف رسالة القاضي أبي الوليد الباجي أن رسالة الراهب لم تكن الأولى بل كانت هنالك رسائل متبادلة بين راهب فرنسا والمقنتر بالله يقول القاضي أبو الوليد الباجي: "وقد كان ورد علينا - قبل هذا - كتابك، واقترن به من دعوى حامله المحال ... ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك، تعينت علينا مفاوضتك"^٤.

أما سبب كتابة الراهب لهذه الرسالة فلأمرين : الأمر الأول كان المسلمون قد ملؤوا سمع الدنيا وبصره، وكانوا سادتها، جاء في رسالة الراهب: "لما انتهى إلينا - أيها الأمير العزيز - أمرك الرفيع في الدنيا، وبصيرتك في تبين أحوالها المتغيرة رأينا أن نراسلك"^٥، الأمر الثاني معاملة المسلمين لغيرهم كانت في غاية اللطف، وهذا ما حمل نصارى أوروبا - وكانوا الأضعف - أن يطمعوا فيهم رغبة في تصيرهم، حيث ظنوا أن هذا التعامل نابع من ضعف في الدين، ولاشك أن جهلهم الكبير بالإسلام كان سبب ذلك، يقول ليفي برونفسال: "أضف إلى ما سبق معرفتهم القليلة بالديانة الإسلامية - أي رجال الدين المسيحي - مثل فقهاء المسلمين عن الديانة المسيحية"^٦، نعم كان رجال الدين في أوروبا يجهلون كل شيء عن الإسلام نتيجة الدعاية المغرضة، والسبب أن آباء الكنيسة درست الأديان المخالفة بغرض دحضها، وانتهوا إلى أنها رجز من عمل الشيطان - كما أشار إلى ذلك راهب فرنسا في رسالته في الطعن في الإسلام - وكان ذلك سبباً في الانغلاق الصارم والتعصب، فلم يدرس الغرب المسيحي طوال تلك القرون الأديان المخالفة، بل كرسوا في الذاكرة الغربية إن آية دراسة للأديان الأخرى لن تقود إلا إلى تناقض حاد مع المسيحية^٧، أما علماء المسلمين فما كانوا يجهلون الديانة النصرانية، وما تتلمذت تتلمذت أوروبا في علم مقارنة الأديان كما مرّ بنا إلا على أيدي علماء المسلمين في الأندلس، وقد أشار القاضي أبو الوليد في رسالته إلى قلة بضاعة القوم في الحوار، والمنطق، وإيراد الحجج، فقال: "ولو تتبعنا ما في كتابك من التناقض، وفساد الوضع، ومُستحيل القول، لما سلّم

^١ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ٩٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٢ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/٩٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/١٠٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/١١٣ - ١١٤، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٥ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/١٠٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٦ - (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي برونفسال: ص/ ١٩٢ .
^٧ - راجع (بحوث في مقارنة الأديان) محمد الشرفاوي: ص/ ٣٦ - ٣٧ .

منه إلا اليسير الحقير؛ لكننا - وفقنا الله وإياك - حملنا ذلك منك على ما عهدناه من أهل ملتك من قلة العلم، واليُعد عن مقاصد المناظرة، وأرجوا أن يوفقك الله بإرشادنا لك إلى ترك التمويه، والتعليق بالمغالطة، والكذب، ويعوضك علم الحقائق، وصحيح المقاصد، وأدب المناظرة التي نُفضي بك إلى السُّبل اللائحة والحقائق الواضحة!"^١.

ولم يورد الراهب في رسالته حججاً عقلية على صدق ما يعتقد، وقد أشار من خلال رسالته أن حلول الله بالابن - تعالى عن ذلك - منصوص في الكتب السابقة: "والأنبياء أفصحوا به من بعدهم؛ وهو عهد من الله مؤكد قبل التوراة أن يكون الالتحام المقدس معلوماً؛ وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط، بل هو منصوص عليه في مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح"^٢، ومن المعروف أن هذه المسألة لم ترد في العهد القديم إطلاقاً، وهذا يدل على قلة بضاعة الراهب في هذا الشأن.

أما هدف الرسالة فكانت شرح العقيدة النصرانية للأمير المسلم حاكم سرقسطة، ودعوته للارتداد عن دينه والدخول في النصرانية، وكتب بأسلوب لطيف فيه التحبب والتلطف مع الأمير.

وقد بيّن في رسالته أنه أرسل مع الرسالة رجلين من إخوانه ممن يثق بهما لشرح عقيدة النصرانية، ولولا الخشية من تألم الملك الشريف بسماع الحجج عن صدق الملة المسيحية لأوردها في رسالته^٣.

أهم الأفكار الواردة في رسالة راهب فرنسا هي:

١- لا يصح الإيمان إلا بالاعتقاد بألوهية المسيح، وأنه ضحى بدمه لإنقاذ الناس من هلكة إبليس، ومن ثم لا نجاة لأحد إلا بهذه العقيدة: "ويقررون عندك معرفة سيدنا المسيح الذي لا ينبغي لنا الإيمان بأحد سواه ولا نرتجي النجاة إلا به، فهو الإله الذي اتخذ حجاباً على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهر - من هلكة إبليس"^٤.

٢- أن العقيدة النصرانية لا يحيط بها إنسان كما لا يحيط بكنهه عظمة الله شيء، على هذا فإن الإيمان مسألة قلبية بيد الله يشرح صدور من أدخل روح العلم في قلبه: "وإن الإحاطة بكنهها مما يعجز دونه إدراك الإنسان! وملك الله تعالى أجل وأعظم من أن يدركه فهم الإنسان، أو يصل إليه بعلم الكلام؛ إلا أن من آيات الله القادر على كل شيء أن يشرح صدور الأدميين، ويدخل روح العلم في قلوبهم، ليتمكن الإيمان في نفوسهم"^٥.

٣- عجز الشيطان عن إضلال الناس بسبب جهود الحواريين، وتضحيات الشهداء الأصفياء، فشبه على أبناء إسماعيل أمر النبوة فأضلهم، ليكفروا بألوهية المسيح، وفيه إنكار لنبوة الرسول الكريم ﷺ، جاء في الرسالة: "حاول [أي الشيطان] تغيير هذه الملة المقدسة بعد إقبال الحواريين الذين هدوا أهل الأرض بالموعظة، وبعد ظهور الشهداء الأصفياء على إبليس بالغلبة، الذين هرقوا دماءهم في أقطار الأرض في ذات الله وفي سبيل شريعته المقدسة، فلم يستطع أن يغري أهل الدنيا ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الأوثان، فشبه على بني إسماعيل في أمر الرسول الذي اعترفوا له بالنبوة، فساق بذلك أنفساً كثيرة إلى عذاب الجحيم"^٦.

^١ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٩، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٢ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٣ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٥ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٦ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

٤- يختم رسالته بدعوة الأمير إلى الدخول في النصرانية، مقابل ولائهم له، "ومتى قبلت قولنا، وعملت برأينا، وتقررت عندنا إجابتك إلى ما ندعوك إليه من قبول كلمة النجاة الدائمة التي نعرضها عليك، لم نتوقف عن الالتحاق بك، فتأمل أيها الحبيب ما يحق عليك تقديم العمل به، والمسارعة إليه.. نسأل الله الذي له القدرة والعظمة الذي من أجله خلق كل شيء ومن دونه لم يخلق شيء، أن يهديك ويثبت في نفسك ما دعوناك إليه وحضناك عليه"^١.

المبحث الثالث - رسالة القاضي أبي الوليد الباجي إلى راهب فرنسا: المطلب الأول - حياة الباجي:

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الثجيبى الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي، الإمام العلامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي، صاحب التصانيف. أصله من مدينة بطليوس، فتحول جدّه إلى باجه - بليدة بقرب إشبيلية - فنسب إليها، ولد في سنة ثلاث وأربعمائة.

ارتحل سنة ست وعشرين، فحج وجاور ثلاثة أعوام مُلازماً للحافظ أبي ذر، فكان يُسافر معه إلى السّراة، ويخدمه، فأكثر عنه، وأخذ علم الحديث، والفقه، والكلام، ثم ارتحل إلى دمشق، فسمع من أبي القاسم عبد الرحمن بن الطيّب، والحسن بن السمسار، والحسن بن محمد بن جميع، ومحمد بن عوف المّزني، وارتحل إلى بغداد سمع عمر بن إبراهيم الزّهرري، وأبا طالب محمد بن غيلان، وأبا القاسم الأزهرري، وعبد العزيز بن علي الأزجي، ومحمد بن علي الصوري الحافظ، وخلفاً سواهم، وذهب إلى الموصل فأقام بها سنة على القاضي أبي جعفر السمناني المتكلم، صاحب الباقلاني، فبرز في الحديث، والفقه، والكلام، والأصول، والأدب، فرجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم غزير حصّله مع الفقر، والتّقنع باليسير.

حدث عنه: أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حزم، وأبو بكر بن حزم، وأبو بكر بن الخطيب، وأبو عبد الله الحميدي، وأبو بكر الفهري الطرطوشي، وابنه الزاهد أبو القاسم بن سليمان، وأبو علي السبتي، وخلق سواهم، وتفقه به أئمة، واشتهر اسمه، وصنف التصانيف النفيسة.

قال القاضي عياض: أجر أبو الوليد نفسه ببغداد لحراسة درب، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب للغزل، ويعقد الوثائق، قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء وفي يده أثر المطرقة إلى أن فشا علمه، وهيّت الدنيا به، وعظّم جاهه، وأجزلت صلاته، حتى توفي عن مال وافر، وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم، ولي القضاء بمواضع.

وقد صنف مصنفات نافعه، فقد صنف كتاب (المنتقى في الفقه)، وكتاب (المعاني في شرح الموطأ)، وصنف كتاباً كبيراً جامعاً، بلغ فيه الغاية، سماه (الاستيفاء)، وله كتاب (الإيماء في الفقه) خمس مجلدات، وكتاب (السراج في الخلاف) لم يتم، و(مختصر المختصر في مسائل المدونة)، وله كتاب في اختلاف الموطآت، وكتاب في الجرح والتعديل، وكتاب (التسديد إلى معرفة التوحيد)، وكتاب (الإشارة في أصول الفقه)، وكتاب (إحكام الفصول في أحكام الأصول)، وكتاب (الحدود)، وكتاب (شرح المنهاج)، وكتاب (سنن الصالحي وسنن العابدين)، وكتاب (سنن المنهاج وترتيب الحجاج)^٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كان أبو ذر الهروي قد أخذ طريقة ابن الباقلاني وأدخلها إلى الحرم، ويقال إنه أول من أدخلها إلى الحرم، وعنه أخذ ذلك من أخذه من أهل المغرب فإنهم كانوا يسمعون عليه البخاري، ويأخذون ذلك عنه، كما أخذه أبو الوليد الباجي ثم رحل الباجي إلى العراق، فأخذ طريقة الباقلاني عن أبي جعفر السمناني الحنفي قاضي الموصل، وصاحب ابن الباقلاني^٣.

^١ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٢ - راجع (سير أعلام النبلاء) الذهبي: ١٨/ ٥٣٥ - ٥٤٥.

^٣ - راجع (درء تعارض القل مع النقل) ١/ ٢٧١.

المطلب الثاني - معرفة القاضي الباجي بالنصرانية وعلو مكانته في المناظرة وعلم الكلام:
لايلتفت إلى قول ليفي برونفنسال من جهل علماء المسلمين بالديانة النصرانية - فكما مرّ بنا^١ - فقد تبوأ القاضي أبو الوليد الباجي مكانة علمية مرموقة في علوم شتى من الفقه، والحديث، وعلم الكلام، والمعروف أن علماء الكلام قد تمرسوا في محاجة الملل المختلفة؛ لأن الإسلام هو دين الحوار، إذ الحوار هو الطريق الوحيد لدعوة الآخر إلى الإسلام، ومن هنا نبغ علمائنا في هذا الجانب، فقد ألف علماء المسلمين كتباً في هذا الجانب سارت بذكرها الركبان، وللباقلائي مناظرته المشهورة مع النصاري حين قدم على ملكهم في القسطنطينية، والقاضي أبو الوليد الباجي ممن تتلمذ على علمه، ومن خلال الرسالة يتبين أن القاضي أبا الوليد متبحر في العقيدة النصرانية، واختلافات فرق النصرانية ما لا يعلمه علماء النصاري، جاء في الرسالة: "وعندنا من علم شريعتكم واختلاف أخباركم في ملتكم، وما تورده كل طائفة من شُبُهكم في الأقيانيم، والاتحاد، ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات أنجيلكم ما لو أبدينا إليهما - أي إلى مبعوثي الراهب - اليسير منه لحيرهُما وبهرهما، وعلمنا أن عندنا من جُمَلها وتفصيلها ما لم ينته إليه أحدٌ من أهل ملتكم، ولا وصل إلى تفريعه، وتَبَّع معانيه أولكم، وأخركم"^٢، والدليل على معرفته لمعتقد القوم أنه صحح ما جاء في رسالة الراهب من معتقد يخالف فيه معتقد النصاري، فقال: "وقد رأينا في كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملتك، فإنه ليس في فرق النصاري من يقول: إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه! بل هو الإيمان بالأب عندكم واجب، والأب يتحد بالناسوت عندكم، وإنما اتحد به الابن، فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالأب، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله! وهذا نقض لقولك: إنه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو الابن!"^٣.

ومن علو كعب القاضي أبي الوليد الباجي في هذا الشأن أنه لم يجد في رسالة الراهب ما يصلح منها إلا النذر اليسير، فقال: "ولو تتبعنا ما في كتابك من التناقض، وفساد الوضع، ومُستحيل القول، لما سلّم منه إلا اليسير الحقير.... وأرجوا أن يوفقك الله بإرشادنا لك إلى ترك التمويه، والتعليق بالمغالطة، والكذب، ويعوضك علم الحقائق، وصحيح المقاصد، وأدب المناظرة التي تُقضي بك إلى السُّبُل اللائحة والحقائق الواضحة!"^٤.

ويتمنى أن يقوم بإزالة هذا الجهل عن الراهب - وهذا شأن العالم المسلم ليعم الخير العالم، وهو من باب الدعوة - بتعليمه أصول هذا العلم، حتى يتبين له الحق جلياً: "ولو دَدْنَا أن تصير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك، ونتمكن من تفهيمك، وثبِّين لك من تحقيق الكلام وتحريره، وتفصيله وتوجيهه، وترتيب الأدلة ومقتضاها، وإحكام البراهين، ومنتهاها ما يزيل كل سخيفة من نفسك، ويظهر من دنسها قلبك، فتعابن الحق جلياً واضحاً، والدين قوياً لا تُحَا"^٥.

والسؤال الذي طالما حيرني قبل أن أقرأ هذه الرسالة بتمعن لماذا بدأت المراسلة من الراهب الفرنسي، أليس المسلمون أحق بذلك؟

ذكر القاض أبو الوليد الباجي ذلك في مقدمة رسالته: "لولا ما كنا نعتقد من بُعد مُستقرك، وتعذر وصول كتابنا إليك، لكنا أحرىء أن نأتي من ذلك ما يلزم، ونسلك منه السبيل الأوجب"^٦، ونخلص إلى أن أجواء الحوار التي كانت متوفرة في الأندلس لم تكن لها وجود في فرنسا في

^١ - راجع (تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية) ليفي برونفنسال: ص/ ١٩٢ .
^٢ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٨، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٨-١١٩، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٩، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٥ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٩، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
^٦ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .

تلك الفترة، بدليل أنهم حين تمكنوا من احتلال الأندلس خيروا أهلها بين القتل أو التنصير هذا ما منع علماء المسلمين من مناظرة القوم، والحوار معهم.

ولا ندري عن الرسائل الأخرى التي وردت إلى المقتدر، "ولما تكررت رسائلك ووسائلك"^١ ويظهر من رسالة القاضي أنه كانت هنالك رسالة سبقت هذه الرسالة معها رجل دخل معه في مناظرة، "ثم آلت حالهما إلى مثل ما آلت حاله إليه من تكذيب أنفسهما"^٢، ولا شك أن المقتدر كان يلاطفه في رسائله حتى تكررت، وقد أرسل راهب فرنسا مع رسالته رجلان ممن يثق بهما حتى يدخلوا في حوار مع الأمير، فما كان منه إلا أن كلف القاضي أبا الوليد الباجي للمناظرة، والرد، فناظر صاحبي الراهب وألطف لهما القول، ورد على رسالة الراهب بلطف ورفق.

المطلب الثالث - مناظرة القاضي أبي الوليد الباجي مع مبعوثي راهب فرنسا: قد اتبع القاضي أبو الوليد الباجي مع صاحبي الراهب الرفق والآن في القول متبعاً أدب القرآن في ذلك طمعاً في هدايتهم، "ولكننا أثرنا الرفق الرفق بهما والإخفاء عليهما، والتأنيس لهما، وألنا لهما القول، وأبدينا إليهما نبذة خفية من الأمر، مما لا تنفر منه نفوسنا، ولا تتوجع من سماعه خواطرهما، أخذين في ذلك بأدب الله تعالى في أمثالهما"^٣، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ونظراً لتمكن القاضي الباجي من علم الكلام وفن الحوار، وإطلاعه على عقيدة القوم، وقيل ذلك كله قوة الإسلام الذاتية، وجهل المبعوثان بهذه الفنون من العلوم، ومخالفة عقيدتهم لأبسط قواعد العقل، كل ذلك جعلهما يضطربان في الدعاوى، والأقوال، ويقعان في التناقض، ويقران بمسألة ثم ينكرانها، بل وصل الأمر أن يكذبا المبعوث الذي سبقهما تارة، وتارة أخرى يرجعان التناقض إلى المترجم، بل وصل الأمر بهما إلى تكذيب أنفسهما، يقول القاضي أبو الوليد الباجي: "وقد ورد مُتَحَمِّلاً كِتَابَكَ فَمَا أوردَا إِلَّا كَلَامَ الْبَشَرِ الَّذِي جرت عادة أهل الضعف بإيراده عند العجز، والفشل، والتبليد والخورمع التحير، والانقطاع والإضطراب في الدعاوى والأقوال، وادّعى في أول الأمر من المحال قريباً مما ادّعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك، ثم آلت حالهما إلى مثل ما آلت حاله إليه من تكذيب أنفسهما، وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما، وترجمة من قولهما... وقد جرى من كلام الواردين من أصحابك اللذين اخترتهما للنيابة عنك من هذا النحو ما أثبته بالتحير، والتبليد والإنكار له بعد الإقرار له"^٤.

ولم تخلُ الرسالة من بعض الشدة أحياناً حين يقتضي المقام ذلك، على العموم أظهر القاضي أبو الوليد الباجي الاهتمام البالغ بالراهب لما له من مكانة وصدارة عند قومه رجاء أن يهديه الله، ويشرح صدره للإسلام، وألان له الحديث لمكانته عند قومه.

ولم يركز القاضي أبو الباجي على كل كلمة في رسالة الراهب، وأعرض عن بعض المستحيلات التي قررها الراهب، لما يعلم عن غفلتهم، وعدم عنايتهم وتدقيقهم في هذه المسائل، ورجاء رجوعه، وأوبته إلى الحق، وقد مرَّ بنا أن النصارى قبلوا ما في كتبهم كمسلمات دون تمحيص مع أن كثيراً من المسائل تخالف بدهيات العقل.

ويمكننا تقسيم الرسالة إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: مناقشة معتقدات النصارى وتفنيدها:

ناقش القاضي أبو الوليد الباجي معتقدات النصارى من جوانب متعددة:

١ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٤، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

٢ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٨، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٨، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٨ - ١١٩، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

أولاً تفنيد ألوهية المسيح عليه السلام:

فقد القاضي أبو الوليد الباجي أسَّ اعتقاد النصارى، وهو القول بألوهية المسيح عليه السلام من وجوه متعددة:

الوجه الأول: أن المسيح عليه السلام بشر مخلوق، وعبد مربوب؛ لأن الصفات التي اتصف بها هي أحوال المُحدثات، من الحركة، والسكون، والزوال، والانتقال، والتغيير من حال إلى حال، وأكل الطعام، والموت الذي كُتب على جميع الأنام، مما لا يصح على إله قديم^١.

الوجه الثاني: إذا قلنا بألوهية المسيح عليه السلام مع كونه يتصف بهذه الصفات والأحوال المحدثثة يفضي هذا القول إلى معضلة كبيرة وهي القول بقدوم العالم وما فيه؛ لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى عليه السلام^٢.

الوجه الثالث: لو كان عيسى عليه السلام إلهاً لما احتاج إلى حيلة الفداء ولخلق الناس مؤمنين خاصة مع أنه في حياته ما آمن به إلا نفر يسير: "وقد آمن بغيره من الأنبياء ممن لم يُبلِّغ به هذا المبلغ، أمثال من آمن بعيسى، فما توفي موسى عليه السلام حتى آمن به العدد الكثير، والجم الغفير، ولا توفي محمد عليه السلام حتى آمن به العدد العظيم الذي استحوذ به البلاد، وتغلب على الآفاق، وأظهر الله على الدين كله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ثم استفتح بعده - بإثر وفاته - أصحابه بلادَ الفرس على بُعدها من مكانه، وتمكين سلطانها، وعظم شأنها وقدرها، واستفتحوا بلاد الشام، وهي كانت أفضل بلادكم، ومكان شريعتكم، وإليها ينتهي حجكم، وعبادتكم، فما صار لمن تزعمون أنه إلهكم - مع بَدَل دمه - إلا أقل مما صار للمربوبين الأدميين من النبيين، مع إغزاز الله لهم وحمایته إليهم، ولو كان عيسى عليه السلام إلهاً قادراً، لما احتاج إلى ذلك، ولخلقهم مؤمنين"^٣.

وما ذكره القاضي أبو الوليد هو الحق فعندما رُفِعَ عيسى عليه السلام ما آمن معه إلا نفر يسير، وقد أشار الراهب إلى أن الذين نشروا النصرانية هم الحواريون بدعتهم، والشهداء الأصفياء الذين هرقوا دماءهم في أقطار الأرض في ذات الله وفي سبيل شريعته^٤، وما انتشرت النصرانية إلا بعد عيسى عليه السلام بقرون، فانتشار النصرانية كانت بجهود بشرية، ولم يكن بجهود عيسى عليه السلام.

ومن جهة أخرى نجد أن ما ذكر القاضي أبو الوليد الباجي من انتشار الإسلام في زمن النبي عليه السلام، وأنه ما التحق بالرفيق الأعلى إلا آمن به أمة عظيمة، وأتباعه من بعده فتحوا البلاد التي كانت تحت أيدي النصارى الروم، وهذه البلاد هي حجهم، ومهوى أفئدتهم، وقبله عبادتهم، هذا كله يدل دلالة واضحة على صدق نبوة النبي عليه السلام، فلو لم يكن رسولاً مرسلًا من قبل الله تعالى لما

أيده بهذا النصر المبين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، إذ أن ملوك الأرض لا يرضون لأحد من أتباعهم أن يكذب على لسانهم ثم يتركوه دون عقاب، فمن باب الأولى أن لا يرضى الجليل عليه السلام أن يقوم أحد بادعاء النبوة وهو كاذب ثم ينصره؛ لأنه يؤدي إلى شر محض، والله لا يخلق شراً محضاً، نعم قد يؤيد الله بعض الملوك الظلمة لحكمة ولكنهم لا يقولون إنهم أنبياء مرسلون من الله عليه السلام.

^١ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٤، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٢ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٤ - ١١٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٢١، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٤ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٠٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

الوجه الرابع: ذكر أن من طريف ما تأتون به، وتضحكون سامعه منكم قولكم: إن عيسى عليه السلام هو ابن الله - تعالى الله عن ذلك -، وتقولون: "إنه من ولد داود عليه السلام، وهذا ثابت في إنجيلكم، ومثلوا من كتابكم، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها: إنه يكون عند الله عظيماً، ويكون الله لاسمه ناشراً ويدعى بابن الله، ويُرثه الله مُلك أبيه داود^١.

ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم؛ لأنها لم تكن من ذرية داود، وإنما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجاً لمريم! فإذا كان عيسى من ولد داود، وداود عبد مخلوق، ووجد بعد أن لم يكن، ومات بعد أن حيى، فكيف يكون عيسى الابن، خالق داود - أبيه - وإلهه؟! وكيف يكون ابناً لداود المخلوق، وابناً لله الخالق؟!^٢.

الوجه الخامس: من غرائب وتناقضات هذه العقيدة قولهم: "إنه بذل دمه في خلاص العباد! وكيف يكون للرب دم؟! والدم من الأجسام المحدثة المخلوقة؟! ولو حددتم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت، دون اللاهوت، وللزمكم أن تقولوا: إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله - تعالى - لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات!! وهذه صفة لا تصح إلا على محدث مخلوق، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمها؛ ولئن جاز هذا عليه، ليجوزن على أبيه - بزعمكم -؛ لأنه على صفة ابنه، بل هو هو عند جماعة منكم! فكيف يكون إلهاً قديماً حياً لم يزل من يجوز عليه الموت، وعدمت حياته؟ وكيف لم يذب عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه عنها، وأذهبه - بزعمكم - على ما ذكرته في كتابك؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلهاً، فما نمنع على هذا أن يكون كل من رأيناه أو سمعنا خبره - قديماً - لم يزلوا آلهة، وإن كان لهم أب، أو ماتوا وفنيت حياتهم وعُدمت، وهل يصح أن يبلغ هذا المبلغ من الجهل الواضح وتجويز قلب الحقائق، ودعوى المحال إلا من سقطت مقالته، واستحكمت جهالته، وعميت بصيرته؟! فكيف من هذه حالة يدعو إلى ما هو عليه ويندب إليه؟!^٣"، ثم بين أن مثل هذه التناقضات وتجويز المستحيلات مما لا يخفى على من له أدنى معرفة، وأن مثل ذلك لا يحتاج إلى دقيق نظر، ولا إلى تأمل، بل هو مما تتاله أول العقول، وأن الذي حمل الراهب على هذا المعتقد أمران:

الأول: أنه لم ير من المعتقدات والشرائع غير ما نشأ عليه فظن أن سائر الشرائع تجري هذا المجرى فرأى الاستمرار على ما سار عليه سلفه لكونه لم يظهر له ما هو أفضل منه.

الثاني: لما نال ما نال من مكانة بين قومه بهذا المعتقد، علم أنه إذا تحول إلى الدين الصحيح لن ينال درجة أدونهم في العلم، فكيف بدرجة أعلامهم، وأئمتهم^٤.

ثانياً: مناقشة شبهات النصارى في القول بألوهية المسيح عليه السلام:

أورد القاضي أبو الوليد الباجي شبهات النصارى في القول بألوهية عيسى عليه السلام، ثم قام بتفنيدها، وهي:

الشبهة الأولى: إن عيسى عليه السلام ولد من غير أب فهذا يعني أنه إله، كان رد القاضي الباجي على هذه الشبهة إذا كان عيسى عليه السلام خلق من غير أب، فإن آدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم من تراب، وقد حملت بعيسى عليه السلام أم، ولم تحمل بآدم أنثى ولا ذكر، فإذا لم يكن آدم إلهاً وهو الأب الأول فعيسى أولى أن لا يكون إلهاً، وهو من ذرية آدم عليه السلام وولده، بل هو عبد مربوب، وإن هذا لواضح إلا لمن جهل معنى الحدوث، ولم يميز الخالق من المخلوق^٥.

^١ - (إنجيل متى) : ١ / ١ .

^٢ - جاء في (إنجيل لوقا) : ٣١ : ٣٣ ها أنت ستحبيلين وتلدن ابناً وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيماً، وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه^٦.

^٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٢٤، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٢٣، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٥ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٢٣، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٦ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١١٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

الشبهة الثانية: ظهور الآيات والمعجزات على يد عيسى عليه السلام: بيّن القاضي أبو الوليد الباجي أن الآيات والمعجزات ظهرت على أيدي سائر الرسل - عليهم السلام - مثلما ظهر على أيدي عيسى عليه السلام ، وأكثر، فلو جاز أن يدعى لعيسى بشيء مما ظهر على يديه من إحياء ميت، وإبراء الأكمه، والأبرص، بأنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك - لجاز أن يُدعى ذلك لإبراهيم عليه السلام لما ظهر على يديه من سلامته من النار بعد أن قذف فيها، ولم ينج عيسى عليه السلام من عدد يسير من البشر راموا - بزعمكم - صلّبه وقتله، ولجاز أن يدعى ذلك لموسى عليه السلام لما ظهر على يديه من قلب العصا حيّة، وفلق البحر، ولجاز أن يُدعى لمحمد صلى الله عليه وآله لما ظهر على يديه من انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وتسييح الحصى في يده، وحنين الجذع إليه وغير ذلك من الآيات^١.

الشبهة الثالثة: إن وجود الآيات لا يقتضي تجويز المُحال، وإحالة الجائز المُمكن: إذا كان ربنا عليه السلام قديماً، سبحانه أن يكون مُحدثاً، أو مخلوقاً، فمن وجدت فيه دلائل الحدوث من أكل وشرب وانتقال لا يكون إلا مخلوقاً مربوباً، ومن هنا لم يدل إحياء الموتى على الربوبية؛ وإنما يدل على ظهور ذلك على أيدي مُدعي النبوة أنه نبي صادق.

ولو جاز أن يقال إن عيسى عليه السلام هو الخالق لما ظهر من ذلك على يديه، والمنفرد بفعله، لجاز أن يقال ذلك في حق الأنبياء - عليهم السلام -؛ لأنهم أنفردوا بخلق ما ظهر على أيديهم، وأن جميعها من خلقهم، وأنهم لذلك آلهة معبودون! وذلك محال فلا خالق إلا الله ، ولا معبود سواه! وهؤلاء أنبياء مكرمون، ورسول مؤيدون، صدقهم الله بما ظهر على أيديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره^٢.

الشبهة الرابعة: ما ذكر الراهب من انشراح للصدر لهذه العقيدة: بيّن القاضي أبو الوليد الباجي أنه: "ما من نحلة، ولا ملة إلا وهي تزعم أن نفوسها نيرة بما تعلمه، منسرحة بما تعتقده، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل، والدهرية الذين يدعون الأزل، والفلاسفة القائلون بقدوم العالم، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام، فما أحدٌ من هذه الفرق إلا وهو يدعي أن نفسه أسكن إلى ما تعتقده، وأوثق بما تنتحله، وأنور بما يزعم أنه يعلمه من نفوس مثبتي الرسل، ومبتغي الكتب، ولكن وضع الكلام ونشره، وتمييزه، ووصفه يُعلي الحق، ويثبتته، ويُدحض الباطل، ويمحقه"^٣.

ثالثاً: نقد محتوى الأناجيل:

كان القاضي أبو الوليد الباجي على دراية بما في الأناجيل، وعلى علم بمدى اضطرابها واختلافها، يقول القاضي: "وقد أنزل ربنا في كتابه الكريم أن عيسى بشّر بنبينا محمد صلى الله عليه وآله؛ فإما أن يكون علم هذا عندكم وإلا فقد كتّمه أخباركم، ومحوه من أنجيلكم، فقد قرأناها معرّبة، وعلّمنا من اختلافها واضطرابها ما دلنا على أنه قد دخلها لتحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان"^٤، وضرب لذلك بأمثلة، وهي:

المثال الأول: استدل القاضي أبو الوليد الباجي على وجود التناقض في الأناجيل في نسب سيدنا عيسى عليه السلام، "ومن ذلك ما في الأناجيل من رواية متى، إن بين إبراهيم ويوسف الذي تزعمون أنه زوج مريم اثنان وأربعون ولادةً، وفي رواية لوقا: بين إبراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلاً، ليس فيهم من أسماء الذين في رواية متى إلا عدد يسير، ولا تكاد هذه

^١ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٢ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١١٥ - ١١٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٣ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٠، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٤ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٥ - راجع (إنجيل متى) ١: ١ - ١٦.

^٦ - راجع (إنجيل لوقا) ٣: ٣٣ - ٣٤.

الروايات تتفق في شيء والإيمان بها عندكم واجب - على اختلافها - لأن الإنجيل كتابكم، واصل شرعكم! فكيف يصح لكم الإيمان بما يختلف ولا يتفق، ويتباين ولا يتعاقد"¹.

المثال الثاني: لما كنتم تقولون كما نقول: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، "فأي قدرة له إذا كان قد بذل دمه في نقض ما شرعه إبليس وغيره من خلقه، فلم يقدر على إصلاح ما أفسده، ولا استرجاع ما أحدثه، ولا تقويم ما عوجه، وإبليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك سفك دمه، ولا تغيير حاله، ولا تجسد لغير جسده، ولا انتقل إلى غير ما كان عليه؟! إن هذا لمما كان يجب ألا يجوز على أقل تلاميذك وأصغر أتباعك، ومما كان يجب أن لا يجوز على أضعف الناس علماء، وأقلهم فهماً"².

المثال الثالث: وهذا كما ذكر القاضي أبو الوليد أغرب من المثال السابق، فقال: "ولكن ليس هذا بأغرب من قولكم: "إن إبليس عرض لعيسى - الإله - بزعمكم - ورقى به أعلى الجبل، وأراه زهرة الدنيا، وقال له: إن عبدتني ملكتك جميع هذا! فلما سمع المسيح من كيد إبليس اللعين، عاذ من شره، واستجار من فتنته بصيام أربعين يوماً، وأربعين ليلة، فأمسك إبليس عنه. فهل لمن جاوز هذا على ربه، وأخبر به عنه مُسَكَّة، أو بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة؟!، أليس الإله هو الخالق لإبليس والقادر على هلاكه، متى شاء والمالك للأرض، والسموات، وما بينهما دون شريك ولا ند، فكيف يخاف من هذه صفة بعض من خلقه أن يفتنه؟ أو كيف تحمل إبليس الأرض، أو تظله السماء، وهو يخاطب ربه ويدعوه إلى عبادته، ويعبد أن يُثبته على ذلك، ويملكه زينة الحياة الدنيا، وهي ملكه ومن خلقه، وربّه يخاف فتنته، ويستجير منه بالصيام"³.

وإذا كان عيسى ﷺ بلغ به الضعف والخوف من الشيطان هذا المبلغ، فكيف تقولون بعد ذلك أنه سيعذب إبليس اللعين وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه منه ومن فتنته في الدنيا؟ وهل قدرته في الآخرة إلا كقدرته في الدنيا؟.

القسم الثاني: التدليل على أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن الرسول ﷺ أرسل إلى كافة الورى وقد ختمت به الرسالات:

استدل القاضي أبو الوليد في رسالته على عظمة الإسلام، وأنه الدين الحق بأدلة، ويمكننا نلخص ذلك في النقاط التالية:

الدليل الأول: أن الله بلطفه ومنه بعث محمداً ﷺ ، وختم به الرسالات بعد أن درست شرائع الرسل السابقين، ودخل التحريف والتبديل في جميع الديانات، وقد خالفت اليهود ما جاء به عيسى ﷺ، وانقسمت النصرانية إلى فرق منحرفة، وظهرت فيها الجهل، وعبدت المجوس نيرانها، والعرب أصنامها، فأرسل الله من قريش قطب العرب، وأفصحها لساناً محمداً ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله .

الدليل الثاني: إن الله أيد رسوله ﷺ بالمعجزات الدالة على نبوته، والآيات الباهرات التي لا يصح فيها تمويه، ولا تلبيس، ولا تخيل، ولا تحريف من ذلك: انشقاق القمر بحضرة جميع من آمن به وكفر، ونبع الماء من بين أصابعه وتوضاً منه العدد الكثير، وتسبيح الحصى في يديه، وحنين الجذع إليه، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير، وروى الجيش العظيم من الماء القليل، وإبراء العيون بإمرار اليد عليها، وغير ذلك من المعجزات التي لو شئنا أن ننتبها، لعظم بذلك الكتاب، وخرجنا عما قصدنا من الاختصار .

¹ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٥، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
² - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٦، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
³ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٦ - ١٢٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .
⁴ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرفاوي: ص/ ١٢٧، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .

الدليل الثالث: إن الله أكرمهم بالمُعْجِز التي فضله به على جميع النبيين، والمرسلين، وهو القرآن الذي تحدى به الإنس والجن أجمعين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا

بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فتحدى العرب والعجم، وجميع الأمم، والعرب أهل فصاحة، وبيان، وتناه في ذلك الشأن، فلم يستطع أحد منهم أن يأتي بسورة من مثله، مع ما أخرجهم إليه خلافهم له من سفك دمائهم وهتك أستارهم، وأخذ أموالهم، وكان إتيانهم بسورة من مثله، لو استطاعوا ذلك أسهل عليهم من تكلف الحرب، والصبر على ألم الجرح! فكيف بالصبر على جميع ما ذكرناه، مع أنه نشأ معهم، وبينهم ولم يتعلم مالم يتعلموه، وهذا أعظم معجزة على يد نبي لأن كل معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها وانقضت وقتها، إنما ينقل إلينا ذكرها، وتُخبر عنها، والخبر يدخله الصدق والكذب، ولولا أن محمداً أعلمنا ﷺ بصحتها وهو الصادق لما وقع العلم بوجودها.

الدليل الرابع: أن القرآن الكريم باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو محفوظ بحفظ الله له، يحفظه الكبير والصغير، لا يمكن لأحد أن يزيد فيه أو ينقص، وهو قرآن واحد، هو الذي يقرأ به في أبعد المشرق، وأبعد المغرب دون زيادة حرف ولا لفظة، وسيبقى محفوظاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الدليل الخامس: ما جاء به من عقائد وتشريعات تؤكد على أنه مرسل من قبل الله تعالى: أمرنا ﷺ بأن نؤمن بالله واحد لا شريك له ولا ند ولا صاحب ولا ولد، ونؤمن بملائكته، وكتبه، ورسله، وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله، ونؤمن بالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصيام، والحج، وجهاد من كفر، وصلة الأرحام، ورغب في التواضع، والعدل، والأداء الأمانة، والصدق والإنصاف، والتعاون على البر والتقوى، والأخذ بمحاسن الأخلاق في السر والجهر، وحضنا على تعلم العلم وأوجبه علينا، نهانا عن المنكر، والفحشاء، وابتع الضلالة، والأهواء، الكبر، والخيلاء، والظلم، والعدوانة الكذب والبهتان.

الدليل السادس: النظر في أحواله ﷺ: كان ﷺ مُنْقَلَباً من الدنيا مؤثراً غيره بها حين إقبالها مع عظم ما فتح عليه منها، وبُسط له فيها، بيثها في أهل ملته والمستحق لها من غيره، لم يمنعه انحرافهم عنه وتكذيبهم له من إتيانهم العدل، وإنصافهم بالقول والفعل، وكان حظه وحظ أقاربه من الدنيا وما فُتح عليه منها أقل، لم يشبع هو وأهله من طعام ثلاثة أيام متواليه. لا يدعي محالاً ولا يقول إنه يعلم من الغيب إلا ما عمله الله تعالى، ولا يدعي أنه يغفر الذنب أحد من أمته، يجالس العبد، ويرحم الصغير، ويؤقر الكبير.

ولو جاز عليه مع ذلك الكذب لجاز على موسى وعيسى وسائر الأنبياء، فإننا لا نعلم صدقهم ولا ميزنا ما جاؤوا به من الحق مما جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب إلا بما ظهر على أيديهم من الآيات البينات، وما أتى به محمد ﷺ أبين وأوضح وأبلغ، ولو جاز أن تقول: إن ما أتى به محمد من جملة التخيل لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذبون الرسل أن يقولوا إن جميع ما جاء به موسى وعيسى وسائر الأنبياء - عليهم السلام - من ذلك الباب^١.

وختم القاضي أبو الوليد الباجي رسالته بقوله: "إن قلبت نصيحتي، وسمعت موعظتي أخرجناك - بعون الله - من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق، وأريناك من طرق الاستدلال، وتمييز البراهين والأمثال ما يشرح صدرك، وينور قلبك"^٢، ثم توعده

^١ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٢٥، ١٢٧، ١٣١، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

^٢ - (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٣٣، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي).

بعقاب الله إن أعرض عن نصيحته، وختم رسالته بالدعاء له بالهداية، ويهدي به قومه فيفوز بأجورهم جميعاً^١.

نتائج البحث

- بعد هذه اللوحة السريعة عن الأندلس، وإلقاء الضوء على رسالتي الراهب والقاضي أبي الوليد الباجي، توصلت إلى النتائج التالية:
- ١- إن أجواء التسامح مع الآخر في البلاد الإسلامية، وفي الأندلس خاصة، كانت قائمة على أسس عقديّة وفكرية، ولم تكن نابعة عن مصلحة أنية.
 - ٢- أجواء التسامح في الأندلس خلق أجواء مناسبة للحوار مع الآخر في الأندلس.
 - ٣- الحوار مع الآخر في الأندلس أدى إلى اهتمام علماء المسلمين بعلم مقارنة الأديان، ويعتبر علماء المسلمين مؤسسوا ورواد هذا العلم.
 - ٤- أظهرت رسالة راهب فرنسا جهلاً مطبقاً بالإسلام، و جهلاً بعلم المناظرة، وبينما أظهرت رسالة القاضي أبي الوليد الباجي طول باع المسلمين بمعرفة النصرانية، ومعتقداتها، ومعتقد كل فرقة، وأظهرت تمرسهم في علم المناظرة والمحاكاة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^١ - راجع (من النماذج الرفيعة للدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين) محمد عبد الله الشرقاوي: ص/ ١٣٢ - ١٣٣، مقال ضمن مجلة (هذه سبيلي) .

المصادر والمراجع

- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير- الاستشراق - الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه/ عبد الحمن حسن حبنكة الميداني، ط ٨ . - دمشق : دار القلم ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين / عصمت عبد اللطيف دندش، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م.
- بحوث في مقارنة الأديان/ محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- ابن زيدون / شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣م.
- تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية/ ليفي بروفنسال، ترجمه إلى الأسبانية إميل جارثيا جومث، ترجمه إلى العربية علي عبد الرؤوف البمبي، علي إبراهيم المنوفي، السيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط٣، ٢٠٠٠م.
- تاريخ الفكر الأندلسي/ بالنشيا، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م .
- درء تعارض العقل مع النقل / تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- الدين، بحوث لدراسة تاريخ الأديان/ محمد عبد الله دراز، الكويت: دار القلم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- رسالة في اللاهوت والسياسة/ سبينوزا، ترجمة وتقديم حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا.
- السجل العلمي لندوة الأندلس قرون قرون من التقلبات والعطاءات/ لجنة التحرير عبد الله بن علي الزيدان، وحمد بن صالح السحبياني، وعبد الغفور بن إسماعيل روزي، وصالح بن محمد السندي، وعبد بن إبراهيم العمير، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .
- سير أعلام النبلاء/ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٩. - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربة/ زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الوري، بيروت: دار الجيل، ودار الأفاق الجديدة، ط٢/ ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي/ يوسف القرضاوي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية/ حسن مؤنس، بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، ودار المناهل، ط١، ١٤٢٣ - ٢٠٠٢م .
- فضل الحضارة الإسلامية العربية على العلوم / زكريا هاشم زكريا، القاهرة: دن، ١٩٧٠م.
- المعيار المعرب والجامع المغرب من فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب/ أحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
- هذه سبيلي /مجلة سنوية متخصصة يصدرها المعهد العالي للدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، أسرة التحرير سعود بن محمد البشر، ومحمد عبد الله الشرقاوي، العدد السادس، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

